فهرنهایت 451

سلسلة الخيال العلمي

رئيس مجلس الإدارة
محمد الأحمد
وزير الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
د. ثائر زين الدين
المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس التحرير
د. طالب عمران

الإشراف الطباعي
أنس الحسن

التدقيق اللغوي
د. محمد قاسم

تصميم الغلاف
ميسون سليمان

الإخراج الفني
ردينة أظن

سلسلة الخيال العلمي (٥٦)

فهرنهايت 451

رواية من الخيال العلمي

تأليف: راي برادبوري

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق

المؤلف رود براد بري

نترك الآن (فيرن) و(ويلز) اللذين استحقا عن جدارة أن يكونا رائدي أدب الخيال العلمي، وننتقل إلى أحد أساطين الخيال العلمي المعاصر، الذي صار اسمه رمزاً للجدية والجودة مثلما صار اسما (أزيموف) و(كلارك) وغيرهما..

الخيال العلمي -كما نعرف- هو ضرب من الأدب يحكي عن أحداث لم تحدث بعد، تتناول علاقة العلم بحياة البشر. ويميل النقاد إلى توسيع مفهوم الخيال العلمي ليشمل ملاحم (جلجاميش) البابلية ومدينة (توماس مور) الفاضلة، وكل عمل يتكلم على حياة الإنسان في عوالم أخرى، أو تطلّعه الذي لا يرتوي إلى المعرفة. لكن الخيال العلمي ما كان ليصل إلى صورته الحالية ولم تولد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، مع كل الخلخلة التي أحدثتها في المفاهيم التقليدية، وتطلع الإنسان الملهوف إلى حل كل أسرار الكون مرة واحدة، وهكذا ولدت (فرانكشتاين) التي كتبتها كاتبة رومانسية عادية هي (ماري شللي)، وسرعان ما انهمر سيل أعمال الخيال العلمي، لكن أبا هذا النوع من الأدب كان هو الفرنسي العظيم (جول فيرن).. وتلاه بنجاح ملحوظ البريطاني (هـ.ج.ويلز)..

في العام ١٩٢١ أدخل الكاتب التشيكي (كاريل آبيك) لفظة (روبرت) إلى الأدب للمرة الأولى.. وهي أهم كلمة في عالم الخيال العلمي طبعاً.

في الخمسينيات بدأ أدب الخيال العلمي الأمريكي يكتسب شعبية واضحة، وقد امتزج امتزاجاً شديداً بالمجلات المصورة، بحيث يصعب فصل نوعي الأدب. ومن أهم الأدباء الأمريكيين للنوع (روبرت هاينلاين) صاحب رواية (غرباء في أرض غريبة- ١٩٦١)، و(أزيموف) صاحب (كهوف الفولاذ- ١٩٥٣)... و(فرانك هربت) في (يوميات لكثبان- ١٩٦٥) و(لاري نيفن).. وسرعان ما ظهرت اتجاهات جديدة مثل (الموجة الجديدة) و(السايير بانك)..

(راي برادبوري) كاتب أمريكي لامع ولد عام ١٩٢٠، اشتهر بمجموعاته القصصية (الرجل المرسوم- ١٩٥١) و(شيء شرير من هذا الطريق يأتي- ١٩٦٢) و(فهرنهايت **451** - ١٩٥٣). كان طفلاً واسع الخيال، وقد اعتاد أن يكتب نحو أربع ساعات يوميّاً منذ كان في الحادية عشرة من عمره، باع أول رواية كتبها عام ١٩٤١، ليتفرغ بعدها للكتابة تماماً. ركز في كتاباته على الشر الكامن في الإنسان وولعه باستغلال ما يعرفه من أجل السيطرة على الآخرين الذين يعرفون أقل. وهو في ذلك متشائم ككل كتّاب الخيال العلمي.. العلم خطر داهم بالنسبة لإنسانية لم تنضج بعد.. ولقد كانت القنبلة الذرية هي أول استخدام للذرة قبل أن يفكر الإنسان في أي استخدام سلمي لها..

فاز بمجموعة غير عادية من الجوائز على كتاباته، منها جوائز (نيبولا) و(بروميثيوس) و(برام ستوكر) و(كتاب الفضاء) و(الخيال العلمي). كتب كثيراً من المسرحيات والسيناريوهات بالإضافة إلى برنامج تلفزيوني مهم هو (مسرح راي برادبوري). وما زال هذا الكاتب المهم يعيش في (كاليفورنيا) حتى اليوم مع أسرته.

رواية اليوم من القصص الشهيرة المهمة في كتابات (برادبوري)، وهي نموذج واضح لرؤيته المتشائمة لغد قاتم يجثم فيه حكم شمولي على أنفاس البشر. وقد قدمها المخرج الفرنسي (فرنسوا تريفو) عام ١٩٦٩ في فيلم شديد الأهمية والعمق، قام ببطولته (أوسكار فيرنر) مع (جولي كريستي). ويقال: إن النجم (ميل جيبسون) يستعد لتقديم القصة نفسها في صيغة جديدة.

أهم أعمال «برادبوري»:

- شجرة الهالوين - الموت مهنة موحشة - مقبرة للمجانين - الحوت الأبيض- ظلال خضراء- الجراد الفضي- الكرنفال الأسود- تفاحات الشمس الذهبية- دواء للوحشة- يوم هطلت الأمطار للأبد- السفاح الصغير- أنا أغني لكهرباء الجسد- الكمبيوتر المسكون.

❖❖❖

الجزء الأول

كان من الممتع أن تحرق..

كانت متعته الخاصة أن يرى الأشياء قد التهمتها النار.. أن يراها وقد اسود لونها وتبدلت. بالفوهة النحاسية في قبضته، والثعبان الهائل يبصق سمومه على العالم، عندها كان الدم ينبض في رأسه، ويشعر كأنه مايسترو جبار يعزف كل سمفونيات الحريق والبريق جالباً رماد التاريخ.

على رأسه الخوذة الرمزية التي تحمل رقم451 وعيناه تلتهبان بفكرة ماهو آت.. كان يحرك قاذف اللهب، وعندما كان البيت يحرق ظلمة الليل نفسها، فلا يبقى إلا اللون الأسود والأحمر والأصفر.

مضى وسط سرب من ذبابات النار، وتمنى لو يشوى بعض (المارشميلو) على عصا في الفرن، بينما الكتب تحلق مشتعلة.. وتتطاير بعيدة مع ريح سوّدها الحريق.

وابتسم (مونتاج) في توحش. كان يعرف أنه سيعود إلى مبنى المطافئ، يتأمل نفسه في المرآة، ثم ينام وهو ما زال يشعر بالابتسامة المتوحشة على عضلات وجهه في الظلام. لم تفارقه قد تلك الابتسامة.. لم تفارقه قط على قدر ما يتذكر.

نزع خوذته السوداء وعلق سترته الواقية من النيران بعناية. أخذ دوشاً مريحاً ثم صعد- ويداه في جيبه- وهو يصفر إلى الطابق العلوي من مبنى المطافئ. هنا كاد يسقط في فتحة الأرضية، لكنه في اللحظة الأخيرة أخرج يديه من جيبه وتشبث بالعمود الذهبي ليخفف من سقطته. وتوقف بينما عباه على ارتفاع بوصة واحدة من الأرض الخرسانية. مشى متجهاً إلى القطار وهو ما زال يصفر.. ثم فجأة تصلب كأنما ريح غامضة جاءت من لا مكان، أو كان شخصاً غيرَ مرئيٍّ ناداه باسمه. كان في الليالي الماضية يشعر بشعور مريب كلما مر بهذا المنحنى من الطريق. كان يشعر بأن شخصاً ما قد كان هنا من لحظة واحدة قبل وصوله. ثمة هدوء معين في الهواء كأنما كان شخص ما ينتظر هنا في صمت، فما إن رآه حتى استحال ظلاً وغاب في الظلمة.. ربما استنشق أنفه عطراً خافتاً، وربما شعر الجلد على ظهر يديه بالحرارة التي تركها شخص كان يقف هنا ورفع حرارة الجو للحظات. لم يستطيع قد أن يفهم سر هذا الشعور..

لكن في هذه الليلة أبطأت خطواته حتى توقفت.. راح عقله الباطن يحاول أن ينظر إلى ما وراء المنحنى.. سمع صوت همس خافتاً. أتنفس هو؟ أم الهواء ينضغط لأن شخصاً ما يقف هنالك في صمت.. وينتظر؟

دار حول المنحنى.. كانت أوراق الخريف تتطاير بكثافة بحيث بدا كأن الفتاة الواقفة هناك تنزلق ببطء على الرصيف، وهي ترمق حذاءها الذي تتطاير حوله أوراق الشجر. كان وجهها رقيقاً بالغ الشحوب، فيه فضول جائع لا يكل. كانت نظرتها تعكس الدهشة.. عينان سوداوان

تتركزان على العالم حتى إنهما لا تتحركان.. كاد يسمع صوت ثوبها.. بل إنه سمع الحركة البيضاء لوجهها حين التفتت وأدركت أن هناك رجلاً يقف في منتصف الرصيف أمامها.

لم تتحرك الفتاة، إنما وقفت ترمق (مونتاج) بعينين سوداوين لامعتين مملوءتين بالحياة، حتى إنه شعر كأنما قال لها شيئاً رائعاً، لكنه كان يعرف أن شفتيه فقط تحركتا لتقولا: «مرحباً»، حيث تصلبت الفتاة إذ رأت جهاز الإشعال في يده وشعار العنقاء على صدره.

قال لها: - «بالطبع أنت جارتنا الجديدة..».

قالت له: - «ولا بد أنك..» — رفعت عينيها عن الرموز التي على ثيابه- «رجل الحريق..».

- «كيف عرفت هذا؟».

- «كان بوسعي أن أعرفه مغمضة العينين».

ضحك وقال: - «من ماذا؟ رائحة الكيروسين؟ إن زوجتي تشكو دائماً من هذا.. لا يمكنك أبداً إزالته بالغسيل».

قالت في رهبة: - «لا..لا يمكنك..».

- «الكيروسين ليس إلا عطراً بالنسبة إلي..».

أدارت وجهها إلى الرصيف المتجه إلى بيتيهما وقالت:

- «أهو كذلك؟ هل يضايقك أن أمشي معك؟ أنا (كلاريس ماكليلان)».

- «وأنا (جاي مونتاج)».. تعالي ماذا تفعلين في الخارج في هذه الساعة المتأخرة؟ وكم عمرك؟

مشيا على الإفريز.. كانت الفتاة تمشي جواره، وذكرته رائحتها برائحة المشمش والشليك.. كان وجهها الأبيض يتألق في ضوء القمر، وأدرك أنها تفتش عن أفضل إجابات لأسئلته.

- «حسن.. أنا في السابعة عشرة من عمري ومجنونة.. عمي يقول إن الاثنين لا يفترقان. أليس هذا وقتاً جميلاً للمشي ليلاً؟ أحب أن أشم الأشياء وأرنو إليها.. أحياناً أسهر طوال الليل.. بالمناسبة أنا لست خائفة على الإطلاق».

- «ولماذا يجب أن تخافي؟».

- «أنت تعرف.. أكثر الناس يخافون رجال الحريق»[1].

١- (رجل الإطفاء) هي الترجمة الأكثر دقة لتعبير Fire man لكن مهمة رجل الإطفاء في هذه الرواية هي حرق الكتب.. لهذا سندعوه (رجل الحريق)..

رأى نفسه واضح التفاصيل في عينيها، معلقاً وسط سائل رائق أسود، وكأن عينيها صمغ عنبر سحري سقط هو فيه، ليحفظ سليماً .. وسألته (كلاريس):

- «هل لي أن أسأل: منذ متى وأنت رجل حريق؟».

- «منذ كنت في العشرين.. عشرة أعوام حتى الآن..».

- «ألا تقرأ أبداً من الكتب التي تحرقها؟».

ضحك وقال: - «هذا ضد القانون..».

- أصحيح أن رجال الإطفاء في الماضي كانوا يطفئون النيران ولا يشعلونها كما يحدث اليوم؟ سمعت مرة أن المنازل كانت تحترق في الماضي، وكانوا يحتاجون إلى رجال الإطفاء لمنع النيران».

- «كلا.. كانت المنازل دوماً ضد الحريق.. ثقي بكلمتي في هذا الصدد ..».

- «ولماذا تضحك؟».

نظر لها بارتباك وتصلب، فقالت له:

- «أنت تضحك بينما أنا لا أقول دعابات.. وتجيب بلا تفكير دون أن تتروى لتفهم كلماتي..».

- «أنت إنسانة غريبة ولا تحترمين أحداً.. ألا يعني لك هذا شيئاً؟».

ودق على رقم**451** المثبت إلى كم سترته..

- «بلى..» - قالتها وأسرعت في خطواتها - «هل رأيت السيارات النفاثة تسابق على الطريق هنا من قبل؟».

- «أنت تغيرين الموضوع!!».

- «أحياناً أحسب السائقين لا يعرفون ماهو العشب ولا الزهور.. لأنهم لا يرون هذه الأشياء ببطء! لو رأى السائق ضباباً أخضر لعرف أن هذا عشب، ولو رأى ضباباً وردياً لقال لك إن هذه زهور.. ولو رأى الضباب أبيض لقال لك إن هذه بيوت..».

قال (مونتاج) في توتر:

- «أنت تفكرين في أمور أكثر من اللازم..».

- «لا أهوى مشاهدة (جدارن التسلية) ولا (حدائق المتعة).. لدي متسع من الوقت للأفكار المخبولة.. هل رأيت لوحات الإعلانات Billdoards العملاقة في الريف؟ هل تعرف أن لوحات الإعلانات كان طولها عشرين قدماً فقط في الماضي؟ لكن السيارات كانت تمر بها بسرعة حتى إنهم اضطروا إلى إطالة الإعلانات إلى مئتي قدم.».

ضحك (مونتاج) بحدة:

- «لم أعرف هذا..».

- «لكني أعرف شيئاً آخر لا تعرفه.. ثمة قطرات ندى على العشب في الصباح..».

لم يستطع تذكر إن كان يعرف هذا من قبل أم لا، وجعله هذا أكثر توتراً. وأشارت الفتاة إلى السماء:

- «ولو أنك نظرت إلى السماء.. لوجدت وجه رجل على القمر..».

واصلا السير في صمت، حتى وصلا إلى دجارها.. كانت كل أضوائها تلتمع..

- «ما الذي يحدث هنا؟».

لم يكن (مونتاج) قد رأى كل هذه الأضواء في منزل من قبل..

- «هؤلاء أبي وأمي وعمي يجلسون لتبادل الحديث.. لقد اعتقل عمي لأنه يمشي على قدميه.. ألم أخبرك بهذا؟ أوه.. نحن من طراز مختلف تماماً عن الآخرين..».

- «لكن عن أي شيء تتكلمون؟».

ضحكت لهذا السؤال وقالت: - «عمت مساءً»

وواصلت مشيها .. ثم بد كأنما تذكرت شيئاً فعادت لتنظر له في دهشة وفضول: -«هل أنت سعيد؟».

صاح:

- «أنا ماذا؟».

لكنها كانت قد تركته وراحت تركض في ضوء القمر نحو بابها، وأغلقته في لطف..

اتجه لباب بيته ووضع يده في فتحة القفازات به، كي يتعرف الباب لمسته.. وسرعان ما انفتح الباب الأمامي.. بالطبع أنا سعيد.. ماذا تعتقد؟ ألست كذلك؟ ووجه السؤال إلى الغرف الهادئة.. وقف عند حاجز التهوية في الجدار. هنا تذكر فجأة أن شيئاً ما كان ينتظره خلف حاجز التهوية.. شيئاً لا يريد أن يفكر فيه الآن.. وأبعد عينيه عنه..

يا له من لقاء غريب في ليلة غريبة. لا يذكر أي شيء كهذا إلا منذ عام مضى حين قابل رجلاً عجوزاً في الحديقة وتبادلا الكلام.

وهز (مونتاج) رأسه.. ونظر إلى الجدار الخالي.. كان وجه الفتاة هناك.. جميلاً بحق في ذاكرته.. كان لها وجه نحيل كأنه عقرب ساعة، تراه شاحباً في غرفة مظلمة، حين تصحو لتعرف الوقت..

كم كان وجهها كالمرآة.. مستحيل.. كم من الناس عرفتهم يعكسون ضوءك الخاص إليك؟ بحث عن تشبيه فلم يجد إلا ما يناسب عمله..

الناس كالمصابيح تتوهج ثم سرعان ما تنطفيء.. لا أحد منهم يتلقف روحك ويعكسها لك ثانية لتعرف نفسك أكثر..

كم من الوقت مشيا معاً؟ ثلاث دقائق؟ خمساً؟ لكن كم بدا الوقت طويلاً.. يا للظل الذي رمته على الجدار بجسدها النحيل! خيل إليه أنه لو شعر بحكة في عينيه لرمشت الفتاة بعينيها هي، ولو استرخت عضلات فكه لتثاءبت الفتاة قبل أن يتثاءب هو..

لقد شعرت أن الفتاة كانت تنتظرني في الشارع هناك..

❖❖❖

فتح باب غرفة النوم.. كأنه يعود لغرفة رخامية باردة في ضريح بعدما غاب القمر.. ظلام دامس ولا علامة واحدة على العالم الفضي بالخارج.. هذا عالم المقبرة حيث لا يمكن أن يصل صوت واحد من المدينة العظيمة.

أصاخ السمع.. كانت هناك همهمة البعوض الذي يرقص في الهواء حوله.. شعر بابتسامة تنزلق.. تذوب.. تتكوم على نفسها.. كأنها شمعة اشتعلت طويلاً ثم تلاشت.. الظلام.. لم يكن سعيداً.. لم يكن سعيداً.. قال لنفسه هذا مراراً.. لقد كان يرتدي السعادة كالقناع، وقد مرقت الفتاة عبر الزقاق حاملة القناع معها، ولم يعد من المناسب أن يلحق بها ويستعيده..

كانت زوجته راقدة في الفراش كأنها جسد مسجى في قبر.. عيناها مثبتتان على السقف كأنما ربطت إليه بحبال من فولاذ لا يمكن رؤيتها.. ومن أذنيها كانت السماعتان تسكبان بحراً لا آخر له من الموسيقا والأصوات. في كل ليلة تحملها هذه الموجات فوقها –بعينين مفتوحتين– طوال الليل حتى الصباح..

كانت الغرفة باردة، وشعر بأنه عاجز عن التنفس.. لكنه لم يرغب في فتح الستائر ليدخل الهواء النقي، لأنه لم يرغب في أن يدخل ضوء القمر. شق طريقه إلى فراشه المنفصل البارد وهو يوشك أَنْ يختنق..

قبل أن يصدم الجسم على الأرضية بثانية واحدة. أحس به.. كأنه قدمه أرسلت ذبذبات خفية وارتدت لها أصداء الحاجز الصغير في طريقها. أصدر الجسم صوتاً مكتوماً وتدحرج في الظلام تحت الفراش..

وقف وراح يصغي للشخص الراقد في الفراش في الظلام.. لم يكن راغباً في إضاءة النور، لذا أضاء مشعله..

كانت هناك جوهرتان تنظران له في ضوء الكشاف.. جوهرتان تسبحان في نهر من المياه الصافية..

– «(مليد ريد)!!».

كان وجهها كجزيرة يغمرها الجليد قد يهطل فوقها المطر لكنها لا تشعر بالمطر.. قد نمر فوقها السحب بظلال متحركة لكنها لا ترى ظلالاً.. لا شيء إلا عينيها الزجاجيتين وأنفاساً خافتة تخرج وتدخل من فرجتي أنفها.. وهي لا تعبأ إن كانت تلكم الأنفاس تخرج أم تدخل.. تدخل أم تخرج.. الآن يرى الشيء الذي صدمه بقدمه وجعله يتدحرج تحت الفراش.. كان الشيء زجاجة صغيرة من الدواء المنوم، كانت في وقت مبكر من هذا اليوم مملوءة بثلاثين كبسولة، والآن هي على الأرض خالية منزوعة الغطاء..

إذ وقف هناك دوي صوت صارخ في الفضاء فوق البيت.. صوت تمزيق عال كأن يدين عملاقتين مزقتا عشرة آلاف ميل من القماش الأسود.. وشعر (مونتاج) بأنه يتمزق بينما القاذفات النفاثة تحلق وتحلق وتحلق.. واحدة منها. واحدة.. اثنتان.. ست منها.. تسع منها.. واحدة.. وأخرى أخرى وأخرى.. كلها تقوم بالصراخ بدلاً منه..

واهتز البيت بالصراخ.. وشعر بيده تثب إلى الهاتف..

تحركت شفتاه أخيراً وهو يهمس بصوت مروّع:

- «مستشفى الطوارئ..».

❖❖❖

كان لديهم جهازان.. أحدهما منظار ينزلق إلى أحشائك مثل الكوبرا إذ تنزلق إلى بئر، لتشرب كل الماء العتيق والماضي المنسي هناك.. جهاز يشرب الماء الأخضر هناك، فهل يشرب من الظلام؟ هل امتص السموم المتراكمة عبر السنين؟ كانت له عين.. يستطيع مشغل الجهاز أن يرتديَ خوذة بصرية خاصة ينظر بها إلى روح الشخص الذي يفحصه.. فماذا رأت العين؟

وكانت الآلة الأخرى تعمل بدورها.. كانت تشفط كل الدماء من الجسد وتبدل بها دماء نقية طازجة..

قال مشغل الآلة:

- «لا بد من أن تنظفه بالطريقتين معاً.. لا جدوى من تنظيف المعدة مالم تنظف الدم أيضاً.. اترك هذه المادة في الدم ولسوف تضرب المخ كمطرقة.. بانج.. بانج.. وسرعان ما ينهار المخ تماماً..».

سأله (مونتاج) في فتور:

- «هل انتهيت من عملك؟».

أغلقا الآلتين وقالا: «انتهينا».

ووقفا بينما يلتف دخان التبغ حول أنفيهما وعيونهما، لكنهما لم يرمشا وقال أحدهما:

- «التكلفة خمسون دولاراً..».

- «أولاً لماذا لا تقولان لي إن كانت ستكون بخير؟».

- «بالطبع ستكون على ما يرام.. قد ظفرنا بالمادة اللعينة كلها هنا في حقيبتنا.. وكما قلت لك.. أنت تمتص ما هو قديم وتضع ما هو جديد، وسرعان ما تكون على مايرام..».

- «كلاكما لم يحصل على الدكتوراه.. فلماذا لم يرسلوا لي أحد حاملي الدكتوراه من الطوارئ؟».

تحركت لفافة تبغ مشغل الجهاز بين شفتيه:

- «يا للجحيم! نحن نرى تسع أو عشر حالات كهذه كل ليلة.. إنها كثيرة جداً.. حالة كهذه لا تحتاج إلى دكتوراه.. فقط تحتاج إلى رجلين حرفيين بارعين يزيلان المشكلة في نصف ساعة.. والآن نحن متعجلان.. هناك مكالمة لنا من بيت يبعد عشرة مربعات سكنية عن هنا.. حاول أن نبقيها هادئة.. ستصحو من نومها جائعة.. والآن وداعاً..».

وحمل الرجلان جهازيهما وغادرا المكان.. غاص (مونتاج) في مقعد وراح يتأمل المرأة.. كانت عيناها مغمضتين الآن، وقرب كفه ليتأكد من تنفسها.. في النهاية قال: -«(مليدريد)..».

فكر: هناك الكثيرون منا ينتحرون.. هناك البلايين منا وهذا رقم كبير بحق.. لا أحد يعرف أحداً.. فقط الغرباء يأتون ويحطمون خصوصيتك.. الغرباء يأتون ويمزقون قلبك.. الغرباء يأتون ويمتصون دمك..

ومر نصف ساعة.. كانت دماء المرأة جديدة الآن وقد بدا أنها أكسبتها شيئاً جديداً.. احمر خداها وبدا كأن شفتيها طازجتان مملوءتان باللون.. إن دم إنسان آخر في عروقها حالياً.. فلو أنهم أخذوا عقلها إلى المغسلة كذلك.. لينظفوه ويغسلوه ويجففوه ويعيدوه في الصباح.. لو أمكنهم هذا!

نهض وفتح الستائر.. كانت الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل.. أحقاً قد مضت ساعة فقط منذ قابل (كلاريس) في الشارع وعاد للبيت المظلم، ليجد زوجته في هذا الحال؟

وانتقل خياله إلى البيت عبر الشارع.. البيت الدافئ المضيء حيث تجلس (كلاريس) مع أسرتها .. البيت ذو الأنوار المضاءة.. إنهم يجلسون هناك ويتكلمون.. يتكلمون طوال الليل.. ماذا يقولون؟

ودون تفكير عبر الزقاق.. ووقف هناك في البرد، وقد صار وجهه قناعاً من الثلج، يصغي لصوت رجل (هل العم؟):

- «حسن.. هذا زمن المناديل الورقية.. تمخط على شخص ما.. كوم المنديل.. تخلص منه.. ابحث عن آخر.. تمخط.. كوم.. ابحث.. كل إنسان يستغل الآخرين..».

عاد (مونتاج) إلى البيت.. أغلق النافذة.. أحكم الأغطية حول (مليدريد)، ثم رقد وضوء القمر على وجنتيه وعلى حاجبيه، وقد انصب ضوء القمر في كل عين صانعاً سداً من الفضة..

قطرة مطر.. (كلاريس).. قطرة أخرى (مليدريد).. ثالثة.. العم.. رابعة.. النار.. حبوب منومة.. مناديل ورقية.. تمخط.. تخلص.. ابحث.. واحد اثنان ثلاثة.. واحد اثنان ثلاثة.. (كلاريس).. (مليدريد)..العم.. النار.. المطر! العاصفة.. العم يضحك.. العاصفة والنار في البركان..

قال:

- «لا أعرف أي شيء أكثر من هذا..».

وترك قرصاً منوماً يذوب تحت لسانه..

❖❖❖

في التاسعة صباحاً كان فراش (مليدريد) خالياً.. جرى (مونتاج) عبر الردهة وتصلب أمام باب المطبخ.. كانت شرائح الخبز المحمص تثب من(التوستر) لتتلقفها يد معدنية تدهنها بالزبد..كانت(ميلدريد) جالسة تنتظر إفطارها، وفي أذنيها السماعتان اللتان تسليانها طوال الوقت.. نظرت فجأة فرأته وهزت رأسها. سألها:

- «أنت على ما يرام؟».

كانت خبيرة في قراءة حركات الشفاه بعد عشرة أعوام من استعمال السماعات القوقعية على الأذنين، لذا هزت رأسها، وجلس (مونتاج)..

قالت:

– «لا أعرف سبب كوني جائعة لهذا الحد ..».

– «أمس أنت...».

– «لم أنم جيداً .. وأشعر بإرهاق شديد .. رباه! أنا جوعى تماماً .. لا أستطيع تصور هذا .. ولكن ماذا عن أمس؟».

– «ماذا؟ هل كان لدينا حفل صاخب أو شيء من هذا القبيل؟ من كان هنا؟».

– «أناس قليلون ..».

مضغت شريحتها من الخبز المحمص وقالت:

– «آمل أنني لم أرتكب حماقات ..».

قال في هدوء:

– «لا ..».

عند العصر أمطرت السماء وصار الكون كله رمادياً .. وقف في الصالة يثبت الشارة على صدره. وتوقف عند فتحة جهاز التهوية لفترة ما .. كانت زوجته في غرفة التلفزيون وقد كفت للحظة عن قراءة النص وصاحت:

- «هيه! الرجل يفكر!».

قال لها: - «أريد أن أتكلم معك.. لقد أخذت كل الحبوب من زجاجتك ليلة أمس..».

قالت في دهشة:

- «أوه.. لا.. ما كنت لأفعل هذا..».

- «الزجاجة كانت فارغة..».

- «ما كنت لأفعل شيئاً كهذا.. لماذا أفعله؟».

- «لا أدري..».

كان من الواضح أنها ترغب في أن يرحل لتواصل البرنامج.. وقالت له:

- «لم أفعل هذا.. ولو بعد مليون سنة..».

- «حسن.. ما دمت تقولين هذا..» - وسألها بتعب:- «ماذا في التلفزيون هذا العصر؟».

لم ترفع عينيها عن النص بين يديها وقالت:

- «حسن.. هناك تمثيلية ستذاع عبر دائرة (من الجدار للجدار) خلال عشر دقائق.. لقد أرسلوا لي نص التمثيلية هذا الصباح.. هناك

سطور ناقصة وعلى أن أكملها أنا .. إنها فكرة جيدة.. السطور الخاصة بربة المنزل ناقصة وسألعبها أنا على الهواء.. سيراقبونني جميعاً عبر الجدران الثلاثة.. مثلاً سيقول الرجل في التمثيلية: ما رأيك في هذا يا (هيلين)؟ عندئذ أتكلم أنا .. أقول: هذا يبدو جيداً .. ثم تستمر أحداث التمثيلية إلى أن يقول لي الرجل:

هل تعتقدين هذا يا(هيلين)؟ فأقول: نعم.. أليس هذا ممتعاً؟».

نظر لها ثم قال:

- «هذه متعة أكيدة..».

- «بالطبع متعة.. خاصة لو أنك قمت بتركيب جدار التلفزيون الرابع.. لا أدري متى يمكنك شراء واحد؟ إن ثمنه لا يتجاوز ألفي دولار..».

- «هذا ثلث دخلي السنوي.».

- «ألا تفكر في أحياناً؟ يمكننا الاستغناء عن أشياء صغيرة كثيرة من أجل هذا الحلم..».

- «نحن بالفعل نستغني عن أشياء كثيرة من أجل دفع ثمن الجدار الثالث.. لقد اشتريناه منذ شهرين لاأكثر.. فهل تذكرين هذا؟».

نظرت له في دهشة:

- «هل من هذا الوقت فقط؟ حسن.. إلى اللقاء يا عزيزي..».

تركها وخرج من المنزل إلى حيث الأمطار..

❖❖❖

كان المطر بدأ يقل حين رأى الفتاة تمشي على الإفريز ووجهها للسماء، وابتسمت حين رأت (مونتاج)..

- مرحباً ..».

رحب بها وقال:

- «ماذا تعملين الآن؟».

- «أنا ما زلت مجنونة.. إن المطر جميل وأنا أحب السير فيه..» - ولعقت شفتيها- «بل إن مذاقه نفسه طيب.. ألا ترى هذا؟».

- «هل كل ما تفعلين هو أن تجولي وتجربي كل شيء مرة واحدة؟».

- «أحياناً مرتين..».

ونظرت لشيء في يدها فسألها:

- «ماذا هنالك؟».

- «زهور النرجس.. يقال إنك لو فركتها تحت ذقنك، ومسحتها فلم يزل أثرها، كان معنى هذا أنك واقع في الحب مع شخص ما!».

ثم ابتسمت وقالت:

- «كنت ذاهبة إلى الطبيب النفسي.. هم يرغمونني على ذلك.. ما زال الرجل يجاهد في كشف أغوار نفسي، ويقول إنني كالبصلة.. ما زال يقشر طبقة تلو طبقة من أسراري..».

- «أنا متأكد من أنك بحاجة إلى الطب النفسي..».

- «هل تعني هذا؟».

أخذ نفساً عميقاً وقال:

- «لا أعنيه..».

- «يريد الطبيب النفسي معرفة سبب تجوالي في الغابات.. وسبب مراقبتي للطيور وجمعي الفراشات.. أحب أن أرجع رأسي للوراء هكذا وأترك المطر يسقط داخل فمي.. إنه رائع المذاق بهذه الطريقة.. هل جربته؟».

- «أنت غريبة الأطوار.. هل قلت إن عمرك سبعة عشر عاماً؟ هذا غريب.. إن زوجتي في الثلاثين لكنك أحياناً تعطين الانطباع بأنك أكبر منها ..».

- «هل لي أن أثير غيظك ثانية يامستر (مونتاج)؟».

- «تفضلي..».

- «كيف بدأ الأمر بالنسبة لك؟ كيف صرت رجل إطفاء؟ كيف فكرت في الوظيفة التي تمارسها؟ أنت لست كالآخرين فقد قابلت بعضهم.. حينما أتكلم أراك تنظر لي.. حين أتكلم على القمر أراك تنظر للقمر.. الآخرون لا يفعلون هذا.. كانوا سيرحلون تاركين إياي أتكلم.. لا أحد لديه وقت يكفي للآخرين..».

شعر بجسده ينقسم إلى نقيضين يحاولان التهام بعضهما بعضاً: الطيب والشرير.. الحار والبارد.. الصلب واللين.. وقال لها:

- «ربما كان من الأفضل أن تلحقي بموعدك..».

ووقف وحده طويلاً بعد رحيلها.. ثم إنه نظر لأعلى إلى المطر وفتح فمه..

❖❖❖

راح (مونتاج) يتأمل في إعجاب كلب الصيد الآلي الذي زود به مركز الإطفاء.. كان يشبه نحلة عجيبة ثمانية الأرجل، قادمة من حقول تزخر بعسل مسموم شائه.. والآن عادت من هناك مغطاة بالكوابيس كي تغفو قليلاً..

في الليالي المملة - أي في كل ليلة- كان الرجال يتسلون بجعل الكلب الآلي يصطاد بعض الحيوانات الحية: الفئران وأحياناً الدجاج وأحياناً القطط التي يجب إغراقها على كل حال.. كانوا يطلقون سراح هذه الحيوانات في مبنى الإطفاء، ويتراهنون على أيها سيظفر به الكلب الآلي أولاً.. بعد ثوان سرعان ما يسقط الفأر أو القط أو الدجاجة في المخالب الحديدية للكلب، وتخرج إبرة طولها أربع بوصات من فم لكلب لتحقن جرعة عالية من البروكايين.. وسرعان ما تلقى الفريسة في المحرقة..

لم يكن (مونتاج) يشارك في هذه المباريات، فقد مر عامان منذ كان يراهن مع المراهنين، ويخسر راتب أسبوع كاملاً، ويواجه سحنة (مليدريد) الغاضبة المجنونة.. لكنه اعتاد أن يجلس ويصغي إلى صوت الضحك من أسفل.. صوت أقدام الفئران، وصراخها الشبيه بصراخ الكمان..

فجأة لمست يده أنف الكلب..

نهض الكلب في مأواه ونظر له بعينين من النيون الأخضر الوهاج، وأطلق المزيد من الزئير.. نوعاً غريباً من الضوضاء الكهربية والطحن واحتكاك المعادن.. تواثب قلب (مونتاج) وهتف:

- «لا .. لا يا بني..».

ورأى الإبرة الفضية تتحرك في الهواء.. تتلوى.. منذرة بالحقن.. وتعالى زئير الوحش..

تمسك (مونتاج) بالعمود النحاسي الذي ينقلهم من طابق إلى طابق، وبسرعة ارتفع به العمود إلى السقف بعيداً عن الوحش الآلي الغاضب..

كان يرتجف، ووجهه أبيض مخضر من الفزع.. ونظر لأسفل فوجد أن الوحش عاد لمأواه، وقد هدأت أضواؤه، وانثنت أرجله الثماني من تحته..

نظر (مونتاج) وراءه ليجد أربعة رجال يلعبون الورق في ركن المكان، وينظرون له دون أن يقول أحدهم شيئاً.. فقط تكلم الرجل الذي يلبس قبعة الكابتن، ويضع رمز العنقاء عليها، وقد استبد به الفضول:

- «(مونتاج)؟».

- «إنه لا يحبني..».

- «من؟ الكلب الإلكتروني؟ هلم.. تعقل.. إنه لا يحب ولا يكره.. إنه (يعمل) فقط.. ليس إلا سلوكاً وبطاريات ودوائر».

- «الكلب يعتمد على ذاكرة برمجناها له.. إنه يعرف الأحماض الأمنية ونسب الكبريت لكل الموجودين هنا من قبل.. لكنه اهتاج حين دنوت منه.. غضب لكنه لم يهاجم، وكأن هناك من أعطاه ما يكفي كي يكون ضدي..».

هتف الكابتن:

- «هلم يا «مونتاج» لا تكن سخيفاً.. من يصنع عملاً كهذا؟ ليس لك أعداء هنا يا بني.. اطلب من الفنيين أن يفحصوا الكلب».

- «ليست هذه أول مرة يهددني فيها.. لقد فعلها مرتين الشهر الماضي.. لا أريد أن أكون الضحية التالية».

ووقف (مونتاج) صامتاً فنظر له الكابتن نظرة متسائلة.. فقال هذا:

- «أحياناً أتساءل عما يفكر فيه هذا الكلب طوال الليل وحده.. سيكون من المؤسف ألا يحوي عقله إلا الصيد والقنص والدماء..».

- «الكلب الآتي لا يفكر.. إنه قطعة من الفن الرفيع.. بندقية تحدد هدفها وتصوب عليه، وتصيبه في كل مرة واثقة من التسديد المحكم.. ترى هل يضايقك ضميرك لسبب ما؟».

❖ ❖ ❖

يوم يومان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة أيام.. كان يخرج من الدار ليرى (كلاريس) في كل مرة، وفي كل مرة كانت تصنع شيئاً جديداً: تجمع الزهور.. تحمل كيساً من الكستناء.. تشم الأشجار.. وفي كل مرة كانت تمشي معه حول ركن الشارع.. وقد قال لها في مرة:

- «لماذا أشعر كلما رأيتك بأنني أعرفك من زمان؟».

- «لأنني أميل إليك، ولأنني لا أريد منك منفعة.. هل تأملت اللافتات الإعلانية كما قلت لك؟».

نظر لها في دهشة ولم يتمالك إلا أن يضحك في ارتباك.. وسألها:

- «لماذا لست في المدرسة؟ أراك كل يوم تجولين ولا تفعلين شيئاً ..».

- «لم يفتقدوني هنالك.. يقولون إنني غير اجتماعية وهذا يدهشني.. أنا اجتماعية جداً لكن المشكلة هنا ماتعنيه لفظة (اجتماعي).. (اجتماعي) بالنسبة إلي معناه الكلام على أشياء كهذه..» – وداعبت الكستناء التي جمعتها من الشجرة – «لكني لا أجد شيئاً اجتماعياً في أن تجلس الناس معاً ولا تسمح لهم بالكلام.. الجلوس ساعة أمام التلفزيون.. اللعب ساعة.. الرسم ساعة.. بينما لا أحد يوجه أسئلة.. أنت فقط تتلقى الإجابات الجاهزة.. ثم ينتهي اليوم وأنت منهمك فلا تجد مكاناً إلا السرير أو تذهب إلى إحدى حدائق التلسية، حيث تستمتع بتهشيم النوافذ في (قسم التحطيم) أو تهشم بعض السيارات في (قسم تهشيم السيارات).. نعم.. ليس لي أصدقاء لكنني لا أجد من يستحق مصادقته..».

- «تبدين لي عجوزاً..».

- «أحياناً أنا عتيقة.. الصبية في عمري يتسلون بقتل بعضهم بعضاً.. لقد أطلقت الشرطة الرصاص على ستة من زملائي العام الماضي فقط.. ومات عشرة في حوادث سيارات، لكن البوليس لا يعبأ بهم ما داموا يملكون تأميناً.. طالما أنت مؤمن عليك بعشرة آلاف دولار فالكل راض سعيد.. جدي يتحدث عن زمن كان الصبية فيه لا يقتل بعضهم بعضاً وكانوا يشعرون بالمسؤولية.. لقد مشيت في كل مكان من البلدة، وهبطت في محطات المترو.. هل تعرف ما لاحظته؟ الناس لا يتكلمون على أي شيء.. في المعارض لا ترى إلا الفن التجريدي.. جدي يتكلم على زمن كانت فيه الصور في المعارض تحكي عن أشياء أو تظهر أناساً..».

❖❖❖

يوم يومان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة أيام.. في مبنى الإطفاء..

اليوم الثالث:

- «(مونتاج).. للمرة الثانية تدخل من الباب الخلفي.. هل ما زال الكلب يضايقك؟».

اليوم الرابع:

- «(مونتاج).. سمعنا خبراً غريباً هذا اليوم.. رجل إطفاء في (سياتل) برمج الكلب الإلكتروني عمداً كي يهاجمه هو.. أي نوع من الانتحار هذا؟».

خمسة ستة سبعة أيام.. وقد رحلت (كلاريس).. لا يفهم السبب لكنه لم يعد يراها على الإطلاق.. الشارع خال.. الأشجار خالية.. الإفريز خال.. بحث عنها في كل مكان.. حسب أنه لو مشى في المسارات نفسها فسوف يجدها، لكن لا أثر لها.. وأغمض عينيه في مبنى الإطفاء يصغي للساعة الناطقة، وصوت لعب الأوراق من رفاقه.. الساعة الباردة في اليوم البارد من العالم الأكثر برداً.. ومن المذياع جاء صوت المذيع:

- «قد تعلن الحرب في أية لحظة.. إن هذا البلد يقف متأهباً للدفاع عن نفسه..».

وهنا ارتجف مبنى الإطفاء إذ حلق سرب من المقاتلات في سماء الصباح المكفهرة..

ونظر (مونتاج) من حوله.. كان الكابتن (بيتي) يرمقه في اهتمام وفضول كأنما هو تمثال في متحف.. في أية لحظة سينهض.. يمشي نحوه.. يلمسه ويعرف عقدة الذنب التي تثقل ضميره..

ونظر (مونتاج) إلى زملائه.. أتراه رأى في حياته رجل إطفاء لا يملك شعراً أسود وحاجبين سوداوين.. وبشرة لوحتها الشمس، وذقناً حلقت بعناية لكنها ما زالت تعكس لوناً أزرق معدنيّاً؟ كل هؤلاء الرجال انعكاسات في المرآة له هو نفسه.. هل يختارون رجال الإطفاء لمظهرهم فقط؟ لرائحة لشياط المتصاعدة منهم؟

- «ماذا عن المكتبة التي تولينا أمرها في الأسبوع الماضي؟ ماذا حدث لصاحبها؟».

- «أخذوه وهو يصرخ إلى المصحة العقلية..».

- «لكنه لم يكن مجنوناً ..».

رتب الكابتن أوراقه وقال:

- «كل رجل مجنون لو حسب أنه يستطيع خداع الحكومة وخداعنا ..».

- «هل كان الأمر دائماً كهذا؟ أعني الحريق والكتب؟ أعني (كان ياما كان..)».

نظر له الكابتن في دهشة وقال:

- «(كان ياما كان..)؟ ما معنى هذا؟».

صمت (مونتاج) ولم يتكلم.. كانت هذه العبارة هي السطر الأول من إحدى قصص الأطفال التي وجدها في مكتبة أحرقها الأسبوع الماضي..

كان الرجال يراجعون كتاب التعليمات الخاصة بالحرق، وكانت تقول:

القاعدة:

١- استجب للإنذار بسرعة.
٢- أشعل النار بسرعة.
٣- أحرق كل شيء.
٤- عد سريعاً لمنى الإطفاء.
٥- ابق مستعداً للإنذارات التالية.

ودوى جرس الإنذار.

دق الجرس في السقف مئتي مرة.. فجأة خلت أربعة مقاعد.. وسرعان ما اختفي الرجال..

- «(مونتاج)! لقد نسيت خوذتك!».

فاستردها من على الجدار خلفه.. وجرى ليهبط على العمود النحاسي، وراحت ريح الليل تعول مع سرينة العربة المتجهة لهدفها. كان بيتاً من ثلاثة طوابق في الجزء القديم من البلدة.. وكان عمره قرناً لكنه ككل البيوت الأخرى قد تم طلاؤه بمادة واقية من النار، وبدا كأنما تلك الطبقة هي الشيء الوحيد الذي يبقى المنزل ملتصقاً بالسماء..

وتوقف المحرك.. ووثب (بيتي) و(ستونمان) و(بلاك) إلى الإفريز وقد بدوا أكثر بدانة في ستراتهم الواقية من النيران.. هشموا الباب الأمامي، وقبضوا على امرأة عجوز برغم أنها لم تكن تجري.. لم تكن تحاول أي فرار..

كانت تقف، وتطوح ذراعيها من جانب لآخر.. لسانها يحاول أن يتحرك في فيها، وعيناها تحاولان تذكر شيء ما .. في النهاية تمكنت من الكلام:

- «كن رجلاً ياسيد (ريدلي).. هذه الليلة بقدرة الله سنشعل شمعة في إنجلترا، أؤمن أنها لن تنطفئ أبداً ..».

صاح (بيتي):

- «كفي عن هذا .. أين هي؟».

وصفعها على وجهها وكرر السؤال، فتصلبت عيناها عليه:

– «أنت تعرف أين هي وإلا ما كنت جئت هنا ..»

تأمل الرجل البطاقة التي في يده، والتي تحمل نص البلاغ الأصلي الذي جاءهم بالهاتف، وقد كتب عليها: «لدي أسباب للشك في القبو..».

– «هلموا يا رجال نظفر بها ..».

سرعان ما صاروا في ظلمة دامسة.. يفتحون أبواباً غير موصدة.. وفجأة هوى شلال من الكتب فوق (مونتاج).. يا للأسى! سرعان ما تزول النشوة قبل أن تبدأ.. دائماً ما يأتي رجال الشرطة ويقيدون الضحية ويكممون فمها بالشريط اللاصق، قبل أن تصل أنت لتجد منزلاً فارغاً.. أنت لم تؤذ أحداً من قبل.. أنت تؤذي الأشياء فقط! ولأن الأشياء لا يمكن إيذاؤها لأنها لا تصرخ ولا تولول، فلم يحدث ما ينغص ضميرك من قبل..

إن عملك هو التنظيف فقط.. تعيد كل شيء لحاله.. من معه الكيروسين.. من معه عود ثقاب؟

لكن هذه المرأة وقعت في الشرك، وقد وجد الرجال أنفسهم يحدثون أكبر قدر من الصخب والضحك كي يغطوا صمتها المملوء بالاتهام لهم..

وشعر (مونتاج) بالضيق.. ليتها ليست هنا تشهد ما يفعلون..

طارت الكتب فوق كتفي (مونتاج) كأنما هي حمامات بيض.. ترفرف أجنحتها .. هوى كتاب على يده وانفتحت صفحة منه.. ووسط العجلة وجد وقتاً كافياً كي يقرأ سطراً واحداً ظل يتوهج في ذهنه كأنما حفر هناك: «أخلد الزمن للنوم في شمس العصر..» رمى الكتاب على الأرض وسرعان ما هوى كتاب آخر بين يديه..

الرجال يرمون له بأكوام من المجلات التي يغطيها الغبار.. فتحلق كأنها طيور ذبيحة.. والمرأة تقف هناك تراقب ما يجري..

ولم يفعل (مونتاج) شيئاً.. يداه تصرفتا بإرادتهما الحرة.. أمسك بالكتاب وبسرعة طوحه تحت إبطه المبتل بالعرق داخل سترته، ورسم على وجهه أمارات البراءة كأنه حاو بارع.. انظروا هنا!! هذا رجل بريء!!

- «(مونتاج)!».

فوثب في مكانه..

- «لا تقف هنالك يا أحمق!».

كانت أكداس الكتب الآن كأنها كومة أسماك تركت لتجفف.. والرجال يتعثرون ويسقطون من فوقها.. أين الكيروسين؟ وأغرقوا الكتب بالسائل من الحاويات التي تحمل رقم **451** على ظهورهم.. ثم إنهم ركضوا إلى أسفل وسط أبخرة الكيروسين.

كانت المرأة الآن راكعة وسط الكتب تتحسس جلودها وأغلفتها المصنوعة من الورق المقوى، وترمي (مونتاج) بنظرة اتهام.. وقال لها (بيتي):

– «أنت تعرفين القانون يا امرأة.. ما الرابط بين هذه الكتب وبعضها؟ لقد قضيت أعواماً من عمرك في برج (بابل) هذا.. بينما القوم الذين في هذه الكتب لم يعيشوا قط.. هلمي!».

هزت المرأة رأسها نفياً، فعاد يقول لها:

– «لسوف يتبخر البيت كله..».

وبدأ الرجال يغادرون البيت، فصاح بهم (مونتاج):

– «ماهذا؟ هل تتركونها هنا؟ لماذا لا نرغمها على الخروج؟».

قال (بيتي) بلا اكتراث:

– «كل هؤلاء المخابيل يفضلون الموت مع كتبهم.. هذا النمط من السلوك معتاد..».

توسل لها (مونتاج):

– «لسوف تأتين معي..».

– «لا.. شكراً على كل حال..».

ثم أخرجت شيئاً من يدها .. كانت علبة ثقاب عادية جدّاً ..

رأى الرجال ما أخرجته فركضوا يتدافعون فراراً من البيت.. وتراجع الكابتن (بيتي) ببطء وبظهره إلى الباب محتفظاً بكبريائه.. وفكر (مونتاج): رباه! دائماً ما تأتي الإنذارات ليلاً لا نهاراً.. ترى ما السبب؟ هل لأن النار تكون أجمل في الليل؟

مدت المرأة يدها وحكت عود الثقاب، وفي اللحظة التالية توهج اللهب وسرعان ما انتقلت النار إلى أبخرة الكيروسين من حولها .. وشعر (مونتاج) بأن الكتاب يخفق كالقلب جوار صدره..

جرى إلى الباب بينما الكيروسين الملتهب يتلوى كأنه مسار بزاقة شريرة..

ولم يتبادل الرجال حديثاً في أثناء العودة إلى مبنى الإطفاء.. لم ينظر أحدهم للآخر..

بعد فترة قال (مونتاج):

- «السيد (ريدلي)..».

- «ماذا؟»

- «قالت: السيد (ريدلي).. حين دخلنا من بابها .. ثم قالت: كن رجلاً.. ثم قالت.. قالت..».

– « .. هذه الليلة بقدرة الله سنشعل شمعة في إنجلترا، أؤمن أنها لن تنطفئ أبداً ..».

نظر له (مونتاج) في دهشة وكذا فعل (بلاك)، فقال (بيتي):

– «هذه الكلمات قالها رجل يدعى (لاتيمر) لرجل يدعى (نيكولاس ريدلي) بينما هما يحرقان حيين بتهمة الهرطقة في (أكسفورد)، في ١٦ أكتوبر عام ١٥٥٥ .. تبّاً! خذ الحذر يا (ستون).. لقد كدت تدهم عابر السبيل هذا».

❖❖❖

راح ينظر لزوجته.. وتذكر كيف وقف الرجلان ينظفان أحشاءها من المنوم.. كم مرة فعلتها وتصحو ناسية تماماً أنها فعلتها.. وفي كل مرة لا ينام هو ويمضي الليل ساهراً.. كان يشعر في كل مرة أنها لو ماتت فلن يبكي.. لأن موتها سيكون كحادث في الشارع.. موت مجهول.. صورة في صحيفة.. وقد جعلته هذه الفكرة يبكي، ليس بسبب الموت ولكن بسبب العجز عن البكاء على الموت..

رجل سخيف خاو متزوج من امرأة سخيفة خاوية.. ما الذي جعلك خاوياً إلى هذا الحد؟ ما الذي استلب كل ما في داخلك؟ طوال اليوم تشاهد مسلسلات عجيبة على الشاشات الثلاثية التي ستصير قريباً رباعية.. أو تقود السيارة بسرعة مجنونة وكلاهما يصرخ محاولاً أن يسمع الآخر ما يقول..

- «حاولي أن تقللي السرعة قليلاً..».

تصرخ:

- «ماذا؟».

- «قلليها إلى الحد الأقصى..».

لكنها لا تسمع وتزيد السرعة إلى ١٠٥ ميل في الساعة، حتى ينقطع نفسه..

وفي البيت تضع السماعات على أذنيها، فيشعر أن التفاهم مستحيل.. عليه أن يؤدي كلماته بطريقة (البانتومايم).. ويأمل في أن يخترق الغلاف البلاستيكي حولها.. بأمل في أن يجعلها تفهم..

- «هل تذكرين الفتاة التي كلمتك عنها؟».

- «أية فتاة؟».

- «جارتنا.. (كلاريس)..».

- «أوه.. أعرف.. هي.. لقد رحلت..».

- «رحلت؟ لأين؟».

- «لا أعرف.. لكن الأسرة كلها قد تركت الدار.. أعتقد أن هذا للأبد .. لربما ماتت الفتاة على ما أعتقد ..».

- «نحن لا نتكلم عن الفتاة نفسها ..».

- «بل هي نفسها .. (مكيلان).. لقد دهمتها سيارة منذ أربعة أيام.. أعتقد أنها ماتت..».

- «أنت لست متأكدة من كلامك!».

- «نعم لست متأكدة.. أنا موقنة تماماً ..».

- «لماذا لم تخبريني؟».

- «نسيت..».

ثم إنها وضعت السماعات على أذنيها ومن جديد غابت بعيداً عنه..

في الصباح كان يشعر بالصداع والرجفة.. وقالت له (ملدريد):

- «لا يمكن أن تكون مريضاً .. لقد كنت على خير حال أمس..».

أغمض جفنيه على النيران وقال:

- «لا .. لم أكن على خير حال».

- «يجب أن تنهض.. إنها الظهيرة وأنت قد نمت أربع ساعات أكثر من المعتاد..».

- «هل جئت لي ببعض الماء والأسبيرين؟».

- «أنت لم تمرض قط من قبل..».

- «حسن.. لكني مريض الآن.. لن أذهب للعمل فاطلبي (بيتي) لي..».

خرجت من الغرفة ثم عادت لتقول:

- «كنت غريب الأطوار أمس..».

نظر إلى كوب الماء الذي جلبته وقال:

- «أين الأسبيرين؟».

- «أوه..» - ومشيت إلى الحمام ثانية - «هل حدث شيء ما؟».

- «لا شيء.. أشعلنا حريقاً..».

- «أما أنا فكانت أجمل ليلة لي.. كنت أشاهد التلفزيون في الصالة..».

- «ماذا كان فيه؟».

- «برامج..».

- «أية برامج؟».

- «أفضل أنواع البرامج.. المجموعة..».

- «نعم.. المجموعة.. المجموعة.. المجموعة..».

وضغط موضع الألم في عينيه، وفجأة جعلته رائحة الكيروسين يتقيأ.. صاحت زوجته وهي تنظر إلى القيء:

- «لماذا فعلت هذا؟».

- «أمس أحرقنا امرأة عجوزاً مع كتبها..».

- «لحسن الحظ أن السجادة قابلة للغسيل..».

وتناولت ممسحة وبدأت التنظيف وهي تغني..

- «(هيلين).. ألن تسأليني عن ليلة أمس؟».

- «ماذا عنها؟».

- «لقد أحرقنا ألف كتاب وأحرقنا امرأة.. أحرقنا كتباً لـ (دانتي) و(سويفت) و(ماركوس أوريليوس)».

- «ألم يكن هذا الأخير أوروبيّاً؟».

- «لا أدري..».

- «كان أوروبياً ومتطرفاً..» – وأمسكت سماعة الهاتف وقالت لك «أنت لا تريد مني أن أطلب (بيتي) حقّاً..».

- «يجب..».

- «لا تصرخ..».

- «أنا لا أصرخ.. ولكنني لا أستطيع أن أتصل به لأقول به إنني لن أعمل اليوم..».

- «ولماذا؟».

فكر في نفسه: لأنك خائف.. لأنك طفل يدعى المرض.. لأنك لو اتصلت لتحوّلت المحادثة إلى التالي: نعم ياكابتن.. أنا أشعر بتحسن.. سأكون عندك في العاشرة مساءً..

قالت له (ملدريد):

- «أنت لست مريضاً.. هل تضحي بجهد كل هذه الأعوام لمجرد أن امرأة وكتبها..».

- «كان يجب أن تريها يا (ميلي)..».

– «هي لا تعني شيئاً لي.. هذا مسؤوليتها .. ما كان يجب أن يكون عندها كتب.. أنا أكرهها .. لقد جعلتك تتغيب عن العمل، وسرعان ما سنجد نفسينا مطرودين.. بلا بيت ولا عمل ولا شيء..».

– «أنت لم تكوني هناك.. لا بد من شيء ما في الكتب.. شيء لا تتصوره.. شيء يجعل امرأة تبقى في بيت يحترق.. لا بد من شيء هناك..».

– لعلها كانت امرأة محدودة الذكاء..

– «كانت أكثر عقلانية منك ومني.. وقد أحرقناها ..».

– «كان عليك أن تفكر في هذا من قبل أن تصير رجل إطفاء..».

– «أفكر؟ كيف أفكر وقد كان أبي وجدي رجلي الإطفاء، وقد كبرت لأكون مثلهما .. لكني ليلة أمس فطنت لحقيقة أخرى هي أن هناك رجلاً وراء كل كتاب.. رجلاً فكر وقضى طوال عمره يصنع هذا الكتاب الذي نحرقه نحن في دقيقتين..».

– «لا تضايقني.. فلم أفعل شيئاً ..».

– «لا أضايقك.. جميل.. لكن ألا ترين من المفيد أن يتضايق المرء من حين لآخر؟ منذ متى شعرت حقيقة بالضيق لأي شيء مهم؟ لأي شيء حقيقي؟».

وتذكر هنا المرأة التي كان الرجلان يجريان لها غسيل المعدة.. لكن كانت هذه (مليدريد) أخرى.. (مليدريد) تكمن عميقاً تحت جلد هذه، ولم تلتق كلتا المرأتين قط..

هنا دوى صوت من مكبر الصوت ينبئ بقدوم أحدهم على الباب.. كان هذا هو الكابتن (بيتي) نفسه.. وقد أصرت (مليدريد) على أن يكلمه زوجها عن مرضه بنفسه..

تأكد (مونتاج) من أن الكتاب مخفي جيداً تحت الوسادة ثم رتب الأغطية على ركبتيه، وجلس في الفراش.. وبعد قليل دخل الكابتن (بيتي) الغرفة مع الزوجة ويداه في جيبيه، وهو ينظر إلى كل شيء ماعدا (مونتاج)..

- «اسكتي أقاربك هؤلاء..»..

قالها الكابتن للزوجة وهو يعني صوت التلفزيون المرتفع، فغادرت الغرفة ركضاً، وكفت الضوضاء في الصالة..

جلس الكابتن على أكثر المقاعد راحة في الغرفة، وصمت قليلاً حتى أشعل غليونه النحاسي ونفث سحابة دخان كثيفة..

- «فقط أردت أن آتي وأرى المريض..»..

- «وكيف خمنت؟»..

ابتسم الرجل حتى ظهرت لثته وأسنانه شديدة البياض وقال:

- «رأيت كل شيء.. أنت كنت ستطلب إجازة هذه الليلة..».

وراح يشعل أعواداً من علبة ثقابه الأبدي، ويطفئها بفمه.. يشعل أعواداً ويطفئها.. ونظر إلى اللهب:

- «حسن.. متى ستتحسن؟».

- «غداً غالباً.. ربما بعد غد.. أول الأسبوع..».

- «هذا متوقع.. هذه لحظة في حياة كل رجل إطفاء.. والسبب أن أحداً منكم لم يعد يتلقى تاريخ المهنة.. هذه أشياء لم يعد يعرفها إلا الرؤساء.. أنت تسأل متى بدأت مهنتنا هذه.. أقول لك إنها بدأت في الوقت الذي نطلق عليه (الحرب الأهلية).. الحقيقة أن عملنا لم يتضح إلا في القرن العشرين حيث ظهرت الصور الفوتوغرافية والسينما ثم التلفزيون.. وصارت الأمور أسهل.. كانت الكتب تروق لبعض الناس هنا وهناك وفي كل مكان.. كان بوسع المرء أن يكون مختلفاً.. كان العالم فسيحاً..

«ثم فجأة امتلأ العالم بالأذرع والمرافق والأفواه.. تضاعف السكان مراراً.. حاول أن تتخيل معي.. رجل القرن التاسع عشر بخيوله وكلابه وعرباته والحركة البطيئة.. ثم في القرن العشرين تتسارع الحركة.. تصير الكتب أقصر.. تظهر صحف (المختارات)

و(التابلويد).. كل شيء يغلي.. الأعمال الكلاسية تقتطع كي تناسب برامج المذياع في القرن العشرين.. ثم تقتطع ثانية لتناسب تعليقاً على كتاب في صحيفة يقرأ في دقيقتين.. ثم ينتهي كتعليق من عشرة سطور في فهرس.. ولم يعد (هاملت) إلا صفحة في كتاب يقول: الآن يمكنك أن تقرأ كل الأعمال الكلاسية في كتاب واحد.. أنا أعرف أنك سمعت عن (هاملت) من قبل.. بسرعة.. نظرة عين.. الآن.. لمحة بصر.. هنا هناك بسرعة.. فوت تحت.. داخل خارج.. لماذا كيف.. ماذا أين.. بنج بانج.. سياسية؟ جملتان وعنوان!! أدر عقل الإنسان بسرعة في آلة الطرد المركزي، فتتطاير كل الأفكار غير المجدية المضيعة للوقت!».

كانت (مليدريد) تنسق الفراش، وارتجف قلب (مونتاج) وهي ترتب الوسادة تحت ظهره.. لن تلبث حتى تصيح: ما هذا؟ وترفع الكتاب في براءة مؤثرة..

- «المدرسة صار أقصر.. اختزلت الفلسفات.. والتاريخ وأهملت الأجرومية.. لماذا تتعلم أي شيء غير ضغط الأزرار وربط الصواميل وجذب المحولات؟ الحياة صارت كلها مجرد سقطة على مؤخرتك.. بوف بانج واو!!».

قالت (ملدريد) وهي تربت على الوسادة:

- «واو!».

كانت الآن تتحسس الحدود الخارجية للكتاب بأناملها.. والآن تعرفته وبدت الدهشة على وجهها، وانفتح فمها لتسأل سؤالاً..

- «ما هذا؟».

فدفع (مونتاج) بنفسه للوراء وصاح:

- «اجلسي!» — فوثبت للوراء- «نحن نتكلم هنا!».

واصل (بيتي) الكلام كأنما لا يسمع ما يقولان.. الآن صار غير مرئي خلف سحب الدخان الكثيف:

- «أنت تحب البيزبول.. أليس كذلك يا (مونتاج)؟».

- «البيزبول لعبة جيدة».

- «وتحب البولينج؟».

- «البولينغ لعبة جيدة كذلك..».

- «الرياضيات الجماعية ممتعة وليس عليك فيها أن تفكر.. انشر المزيد من الرسوم الهزلية في الكتب.. أعطهم صوراً أكثر.. الشوارع ملأى بأناس يذهبون إلى مكان ما.. مكان ما.. لاجئو الجازولين.. يذهبون من مكان لآخر ويتبعون القمر.. ينامون حيث نمت أنت أمس.. وينتقلون من فندق لآخر..

«المدارس تخرج عدائين.. متسابقين.. واثبين.. بدلاً من النقاد والعارفين.. صارت كلمة (مثقف) سبة كما تستحق أن تكون.. أنت تذكر كيف كنت تخشى وتكره الصبي الذكي في مدرستك الذي كان يحل كل مسائل الرياضيات بسهولة.. وكيف كنت تخص ها الصبي بالضرب والتعذيب بعد المدرسة.. يجب أن نكون سواسية..الناس لم يولدوا متساوين كما يقول الدستور، لكن علينا نحن أن نجعلهم متساوين.. لو كان كل إنسان كأخيه لعمت السعادة الجميع.. الكتب هي سلاح محشو عند جارك.. احرقها.. خذ الطلقة من السلاح.. ولهذا منذ صارت المنازل معزولة ضد الحريق، لم يعد رجال الإطفاء مطلوبين كالسابق.. لهذا تحولوا إلى حراس لسلامة عقولنا.. مركز خوفنا المبرر من أن نكون أقل من الآخرين.. رقباء.. قضاة.. منفذون.. هذا أنت يا (مونتاج) وهذا أنا..».

ثم سكب في كفه بعض رماد الغليون وقال:

- «الناس تريد السعادة.. ونحن نقدمها لهم.. نوفر لهم المرح ودغدغة المشاعر..».

ونظر (مونتاج) إلى زوجته الواقفة على الباب، وكانت تحرك شفتيها.. لكنه لم يجسر على محاولة قراءة ما تقول حتى لا يلاحظ (بيتي)..

– «السود لا يحبون كارتون (سامبو) الصغير.. احرقه.. البيض لا يحبون رواية (كوخ العم توم).. احرقها .. صفاء العقل يا (مونتاج).. السلام.. خذ صراعاتك إلى المحرقة.. لا تضيع وقتك في الجنازات، ولا تتحدث عن الذكريات، بل احرق الجثث.. إن طائرات الهليوكبتر تحمل المحارق إلى كل أرجاء البلاد .. النار تحل كل شيء.. النار ذكية يا (مونتاج).. النار نقية طاهرة..

«كانت هناك فتاة من الجيران تدعى (كلاريس مكيلان).. فتاة غريبة جداً.. لا يمكن أن تفهم كيف حدثت أصلاً! لدينا سجل عن أسرتها راقبناهم جيداً.. أنت لا تستطيع الخلاص من كل الشّواذ في بضعة أعوام.. ولأسباب كهذه قمنا بتخفيض سن دخول الحضانة عاماً بعد عام.. حتى إننا اليوم ننتزعهم تقريباً من المهد إلى الحضانة.. إن البيت قد يهدم كل ما علمه المجتمع لأفراده.. عم الفتاة كان سلوكه معادياً للمجتمع، والفتاة كان لها سجل مدرسي غريب.. لم تحاول قط أن تعرف (كيف) تحدث الأشياء، ولكن (لماذا) تحدث.. من حسن حظ الفتاة التعسة أنها ماتت..».

– «ماتت؟».

– «من حسن الحظ أن الشواذ من أمثالها لا يحدثون كثيراً.. اجعل الناس يعيشون في سلام يا (مونتاج).. أعطهم مسابقات يربحون فيها إذا تذكروا أسماء الأغاني المشهورة أو أسماء عواصم الولايات، أو كم

من القمح أنتجته (أيوا) العام الماضي[١] .. حاول أن تحشوهم بالحقائق سريعة الاحتراق حتى يشعروا بأنهم أذكياء..

حتى يشعروا بأنهم يفكرون.. هكذا يشعرون بالحركة دون أن يتحركوا.. ولسوف يصيرون جميعاً سعداء.. إن الرجل الذي يفك ويعيد تركيب تلفزيون الحائط – وكل الناس بوسعهم هذا اليوم- لأسعد من الرجل الذي يحاول أن يفك الكون وهو أمر لن يتركه إلا شاعراً بالحقارة والعزلة والتضاؤل..».

ونهض (بيتي) قائلاً:

«أعتقد أن على الانصراف الآن.. انتهت المحاضرة، وآمل أنني أوضحت الأمور.. ما يجب أن تتذكره يا (مونتاج) هو أننا (فتية السعادة).. فلا تتخل عن موقفك.. لا تترك أعاصير الفلسفة والتحذلق تغرق كل شيء..».

وصافحه (بيتي) فلم يجسر (مونتاج) على الكلام، وكأن البيت كله تهاوى من حوله..

– «كلمة أخيرة.. كل رجل إطفاء يعاني حكة ولو مرة واحدة في أثناء عمله.. يتساءل: ترى ماذا تقول الكتب؟ ويحاول أن يهرش موضع

١– كما نرى.. يبدو أن هذه الرواية ستظل مناسبة لكل زمان ومكان!!!

الحكة هذا .. أؤكد لك يا (مونتاج) أنني قرأت بعضها لأعرف عم يدور الأمر، ودعني أؤكد لك أن الكتب لا تقول شيئاً .. لو كانت قصصاً، فهي تتكلم على ناس لا وجود لهم، ولو لم تكن قصصاً فالأمر أسوأ .. أستاذ يعتبر الآخر أبله، وفيلسوف يخنق الآخر من بلعومه.. كلهم يكافحون محاولين محو النجوم وإطفاء الشمس.. والآن ماذا لو حاول رجل إطفاء – عن غير عمد- أن يأخذ معه كتاباً إلى داره؟».

وارتجف (مونتاج) بينما قال (بيتي):

- «خطأ طبيعي.. إنه الفضول لا أكثر.. نحن في المطافئ لا نفقد حكمتنا عندئذ .. فقط نترك رجل الإطفاء أربعاً وعشرين ساعة.. لو لم يحرقه بعدها نأتي نحن ونتولى الأمر.. والآن هل ننتظرك في وردية الليلة؟».

- «لا أدري..».

وفكر (مونتاج): ربما لا أعود للعمل أبداً .. قال (بيتي):

- «اشف سريعاً وابق كذلك..».

وغادر الغرفة..

نظر (مونتاج) إلى زوجته التي جلست في الردهة تتكلم مع أحد المعلقين على شاشة التلفزيون.. كان يناديها باسمها، والفضل في هذا يعود إلى المحول الذي كلفه مئة دولار، والذي يذكر اسمها كلما تحدث

المعلق إلى جمهور غير محدد .. وهكذا يتم تحوير الصوت Serambling ليخرج اسمها هي كأنه صديق مخلص..

قال (مونتاج) لامرأته:

– «أنا اليوم في أسوأ حال.. أريد تحطيم الأشياء وقتل الناس..».

– «إذن خذ العربة الخنفسة و..».

– «لا شكراً».

– «إنني أحبّ قيادتها حين أشعر بما تشعر به.. من الممتع أن تقودها بسرعة خمسة وتسعين ميلاً في الريف، حيث تقتل الأرانب وتدوس الكلاب.. صدقني خذها ..».

نهض وبدأ يرتدي ثيابه:

– «لقد كان (بيتي) على حق.. السعادة هي أهم شيء.. وأنا لست سعيداً .. لا أدري ما حل بي، لكن لا بد من أن أعمل شيئاً كبيراً مخيفاً ..».

ثم نهض وتناول مقعداً وزحزحه حتى وصل إلى الباب الأمامي وصعد عليه.. مد يده وانتزع غطاء التهوية.. وحرك يده حتى بلغت كتاباً .. دون أن ينتظر له رمى به إلى الأرض.. التقط كتابين آخرين ورمى بهما أرضاً .. وواصل إلقاء الكتب.. كتب كبيرة وصغيرة.. حمراء وخضراء.. حين انتهى كان هناك عشرون كتاباً عند قدمي زوجته..

قال لها:

- «آسف.. لم يخطر لي ذلك، لكن يبدو أننا الآن متورطان معاً في هذا..».

تراجعت (مليدريد) للوراء وكأنما ترى عدداً من الفئران عند قدميها، وشحب وجهها وتلاحقت أنفاسها.. لفظت باسمه مرة واثنتين، ثم حملت أحد الكتب جارية نحو موقد المطبخ..

أمسك بها فحاولت التملص وهي تصرخ وتخمش..

- «لا يا (ميلي)! توقفي! أنت لاتعرفين!».

وصفعها على وجهها.. واعتصر كتفيها وهزها، فانفجرت في البكاء..

- «اصبري قليلاً.. لا بد أن أرى ما بها.. إذا كان كلام الكابتن صحيحاً فلسوف نحرقها معاً.. هل تسمعين؟ نحرقها معاً.. لا بد أن نعرف ما دهانا؟ أنت والدواء المنوم كل ليلة والسيارة.. وأنا وعملي.. لا بد من أن نفهم.. هذه أول مرة أطلب فيها شيئاً منك.. أريدك معي بشدة في هذه الساعات..».

كفت عن البكاء.. وجلست على الأرض.. لمست ساقها واحداً من الكتب، فجذبتها في خوف..

أمسك بأحد الكتب وفتحه، وقرر أن يبدأ القراءة من البداية..

هنا دوى صوت مكبر الصوت.. هناك واحد على الباب.. صاحت الزوجة في رعب:

- «إنه هو! لقد عاد!»

- «لن نفتح له..».

كانت رغبة عارمة تدفعه إلى أن يخفي الكتب حالاً في فتحة التهوية، لكنه لن يستطيع مواجهة (بيتي) في كل الأحوال.. وصاحت الزوجة:

- «لسوف يدخل ويحرق الكتب ويحرقنا..».

وشعرا بصوت وراء الباب كأنما أحدهم يقف هناك يصغي.. كأنما هناك من يخدش الباب بأظفاره الحادة، وبعد قليل ابتعدت الخطوات..

وواصل (مونتاج) القراءة:

- «من المؤكد أن أحد عشر ألف شخص جربوا الموت أكثر مما جربوا كسر البيضة من طرفها المستدق..».

نظرت له في رعب وقالت:

- «ما معنى هذه! هذا الكلام لا معنى له.. لقد كان (بيتي) على حق.. الكتب لا تقول إلا هراء..».

- «ربما لأننا لم نقرأ بما يكفي.. سأجرب مرة أخرى ومن البداية..».

❖❖❖

الجزء الثانـــــي

الغربال والرمال

قضيا العصر في القراءة بينما أمطار (نوفمبر) الباردة تنهمر على المنزل.. وكان التلفزيون في الصالة صامتاً خالياً من النساء اللاتي يلبسن الشباك الذهبية والرجال ذوي السترات السوداء، يسحبون أرنب الفرص من القبعة.. وكان (مونتاج) يعيد قراءة تلك الفقرة للمرة الثلاثين:

- «لا يمكن أن نعرف اللحظة الدقيقة التي تتكون فيها الصداقة.. كما تملأ الوعاء قطرة قطرة، هناك تلك القطرة الأخيرة التي تجعله يفيض، وهكذا في سلسلة من العواطف هناك عاطفة أخيرة تجعل القلب يفيض بما فيه..».

كان قلبه يرتجف توتراً، وقد دخل المطبخ عدة مرات فقط ليتأمل المطر المنهمر على زجاج النوافذ .. وارتجفا إذ سمعا صوت خدش على الباب الأمامي.. دوى صوت طائرات نفاثة تعبر السماء الممطرة فوق البيت فقال (مونتاج):

- «إنني أتساءل كيف يمر هؤلاء الطيارون في السماء كل ثانية من حياتنا .. ألأننا أثرياء والعالم فقير؟ ألأننا نموت من التخمة بينما

شعوب العالم الأخرى تتضور جوعاً؟ أترى هذا هو السبب الذي يكرهنا العالم من أجله إلى هذا الحد؟ ربما توجد الإجابة في الكتب..».

مسكين أنت يا(مونتاج).. لكن كيف تجد العون وأين؟ أين تجد معلمين بعد فوات الأوان؟

تذكر الرجل العجوز الذي قابله يوماً في الحديقة وتحدثا عن الكتب.. وتذكر كيف أن الرجل أعطاه عنوانه غير عارف أنه من رجال الإطفاء.. جرى إلى الملف الذي يحمل عنوان (تحريات مستقبلة)، وبحث عن رقم الهاتف، ثم طلبه وسأل عمن يدعى الأستاذ (فابر)..

جاءه صوت الرجل يتساءل عمن هنالك، فسأله على الفور:

– «بروفسور.. أريد أن أعرف منك عدد نسخ التوراة الباقية في هذا البلد..».

– «وكيف لي أن أعرف؟ من المتكلم؟».

– «ونسخ مسرحيات (شكسبير)؟ كم عددها وأين أجدها؟».

– «أعتقد أن هذا شرك.. أنت تعرف أنه لا يوجد نسخة واحدة من (شكسبير) في البلاد كلها اليوم.. وداعاً..».

ووضع (فابر) السماعة..

كان (مونتاج) يعرف أنه لا توجد نسخة واحدة في البلاد كلها، لكنه أراد أن يسمع هذا من (فابر) نفسه.. واتجه إلى زوجته التي تشاهد التلفزيون وأراها كتاباً وقال:

- «تصوري إذن أن هذه هي النسخة الوحيدة من (العهد القديم والجديد) في العالم اليوم؟».

- «قلت لك يجب أن تعيدها لـ (بيتي).. إنه خمن أن معك كتاباً».

- «لا أهتم لأنه لا يعرف أيها معي.. لكن رأى كتاب أعيده له إذن كبديل لهذا؟ هل أعيد (ثورو) أم (جيفرسون)؟ المشكلة أنني إذ أعدت كتاباً وكان (بيتي) يعرف بالضبط أي كتاب سرقت، فلسوف يخمن أن عندي مكتبة هائلة هنا ..».

صرخت (ملدريد) وهي موشكة على الذوبان في مكانها كدمية من شمع:

- «هل ترى؟ أنت توشكُ أن تخرب بيتنا ..».

غادر (مونتاج) الدار وراح يركض في الطرقات.. ثم ركب مترو الأنفاق الهوائي..

ذات مرة كان صبياً وقد جلس على كثيب رملي أصفر، في يوف صيف، يملأ بالرمال منخلاً، لأن ابن عم قاسياً قال له: إذا ملأت هذا الغربال بالرمال فسوف أعطيك قرشاً .. وكذا قضى الوقت يملأ

الغربال ويملأ الغربال، لكن الرمال كانت تتسرب من أسفل بلا توقف.. يداه منهكتان والرمال حارقة والدموع تسيل على خديه.. وقد خطر له اليوم أنه لو قرأ الكتب بسرعة فلربما استطاع أن يملأ الغربال..

كانت التوراة في يده وقد أدرك أنه خلال ساعات يجب أن يعطيها لـ (بيتي)، لهذا قرر أن يقرأ بأسرع ما يستطيع أكبر قدر ممكن، وأن يحاول أن يحفظ ما يطالعه قدر الإمكان، لعل شيئاً يبقى منها في ذاكرته.. الناس ينظرون له في ذعر ورهبة فيرون الكتاب المفتوح بين يديه.. لا بد أنه مجنون..

أخيراً بلغ وجهته فدق الباب..

- «من هذا؟».

- «(مونتاج).. دعني أدخل..».

- «انصرف من فضلك..».

- «أقسم إنني لن أؤذيك..».

انفح الباب واختلس (فابر) النظر.. بدا هشّاً جدّاً عجوزاً جدّاً خائفاً جداً.. كأنما لم يغادر الدار منذ أعوام.. ثم سقطت عيناه على الكتاب تحت إبط (مونتاج) عندها لم يعد عجوزاً ولم يعد خائفاً..

- «آسف بشدة.. لكن على المرء أن يكون حذراً..».

كانت غرفة النوم مفتوحة، وكان (مونتاج) يبصر بها نوعاً من الآلات المعقدة.. لاحظ الرجل أن (مونتاج) ينظر من فوق كتفه، فاستدار وأغلق الباب.. ثم أمسك بالكتاب وسأله:

- «من أين جئت به؟».

- «سرقته..».

نظر الرجل لوجهه للحظة ثم قال:

- «أنت شجاع..» - ثم حك ركبتيه ومد يده للكتاب - «هل تسمح؟».

وتحسس الكتاب في شغف وقال:

- «أنا لست متديناً.. قد مر وقت طويل.. لكنه ما زال طيباً كما عرفته.. اليوم صار الدين مجرد سلعة تجارية تفرض على المتدينين..».

وتشمم الكتاب وقال:

- «هل تعرف أن للكتب رائحة جوز الطيب أو التوابل القادمة من بلا نائية؟ كنت أحب شمها وأنا طفل..أنت تنظر يامستر (مونتاج) إلى جبان.. لقد رأيت إلام تصير الأمور منذ زمن لكني لم أقل شيئاً.. صمت. حتى لم يعد من نفع للكلام.. والآن أتمنى لو قلت لي لماذا جئت هنا..».

- «ما عاد أحد يصغي لي.. سئمت الكلام مع الجدران.. أريد من يصغي لما أقول.. أريدك أن تجعلني أفهم ما أقرؤه..».

- وما الذي حرك فيك هذه الرغبة؟».

- لا أدري. لدي وزوجتي كل ما نريد كي نكون سعيدين، وبرغم هذا لسنا سعيدين.. بحثت عن الشيء الناقص في حياتنا فلم أجد إلا الكتب التي ظللت أحرقها عشر سنوات.. لعلها تعينني على أن أكون سعيداً..».

- «لا يوجد شيء سحري في الكتب.. إن هي إلا مجرد أوعية حفظنا فيها أشياء خفنا أن ننساها.. السحر هو ما تقول الكتب.. الطريقة التي تخيط بها رقع الكون معاً لتصنع منها ثوباً واحداً لنا.. إنها تظهر الثقوب في الحياة، ولهذا هي مخيفة.. إن الناس العاديين يرغبون في وجه جميل للحياة كأنه تمثال شمعي..

«التلفزيون يغرقك في بحر من الأصوات والألوان بحيث لا تجد الوقت الكافي لتفكر أو تنتقد.. إنه يقدم لك الأفكار الجاهزة، ولا يسمح لك بالانتقاد الذي يسمح به الكتاب.. وعلى كل حال، ومهما كان الأمر سيئاً فالناس بالفعل تشعر بالسعادة وتستمتع بوقتها.. لهذا يا بني كف عن هذا.. عد لقفصك وكف عن إقناع نفسه بأنك لست سوى سنجاب حبيس..».

- «إذن أنت لا تهتم..».

- «أنا أهتم لدرجة المرض.. عمت مساء.. عمت مساء..».

نهض (مونتاج) وأمسك بالكتاب، وسأل الرجل:

- «هل تريد هذا؟».

- «إنني لأضحي بذراعي اليمنى كي أظفر به..».

ودون أن يدري كيف فعل هذا، بدأ (مونتاج) يمزق غلاف الكتاب وأول صفحتين منه..

- «ماذا تفعل أيها المجنون؟»

لكن (مونتاج) واصل التمزيق، وراحت الأوراق تتكوم على الأرض حوله، وقال (مونتاج):

- «من يستطيع منعي؟ أنا رجل إطفاء وبوسعي أن أبيدك!».

ارتمى البروفسور على مقعد وغطى وجهه، وقال في وهن:

- «ماذا تريد؟».

- «أريد أن تعلمني..».

- «حسن.. حسن.. لكن كف عن تمزيق الكتاب..».

ووضع (مونتاج) الكتاب جانباً فسأله البروفسور:

- «(مونتاج).. هل معك مال..؟».

- «نحو أربعمئة إلى خمسمئة دولار. لم؟».

- «عرفت رجلاً في الجامعة كان يقوم بالطباعة.. يمكننا أن نستعين بهذا المطبعجي الذي لم يعد أحد يريده..».

- «لكني ما زلت بحاجة إلى مظلة تحميني من المطر.. أنا خائف من الكابتن، وهو واسع الحجة وسيعرف كيف يعيدني إلى عمل الإطفاء.. فهل يمكنك أن تخبرني كيف أنجو منه؟ لا أريد أن أعود إلى الصورة التي كنتها في الأسبوع الماضي، حين كنت أحرق الكتب وأتلذذ بذلك..»

لم يرد الرجل، وأخذ نفساً عميقاً ثم نظر إلى غرفة النوم.. نظرة لم تفت (مونتاج).. ثم أخذ نفساً آخر، وأغمض عينيه..

- «حسن؟»

- «(مونتاج).. كنت سأتركك تغادر منزلي الآن لأنني جبان.. لكن هناك شيئاً أرغب في أن تراه..».

وفتح (فابر) باب غرفة النوم، وكانت هناك منضدة فوقها بعض المعدات المعدنية، والبوبينات والبلورات والأسلاك الرفيعة..

- «أنا مغرم بالإلكترونيات، وقد قضيت أعواماً أبتكر هذه الأشياء.. دفعت ثمنها من المضاربة في أسواق الأسهم، وهي الملجأ الأخير للأذكياء العاطلين.. وانتظرت نصف عمري حتى تأتي من أتكلم معه.. يوم قابلتك في الحديقة توقعت أنك ستأتي إلى داري حاملاً الصداقة أو النار.. ما كان بوسعي أن أعرف..».

- «تبدو لي هذه الأشياء كجهاز راديو..».

- «بل أكثر من هذا.. هذا جهاز تنصت لو أنك وضعته في أذنك لأمكنني أن أجلس في داري مستريحاً وأصغي لكل ما يقول رجال الإطفاء.. سأكون أنا ملكة النحل الآمنة في خليتها، وأنت تلعب دور ذكر النحل.. ستضع هذا في أذنك وتذهب إلى مبنى الحريق، ولسوف أسمع أنا ما يقوله لك الكابتن (بيتي) وأرسل لك إجابتي.. هل يضايقك هذا؟ والآن وداعاً وحظاً طيباً..».

وخرج (مونتاج) إلى الشارع المظلم يرمق العالم.. وكانت السماء مكفهرة تنذر بالحرب القادمة، وكأنما القمر سيهوى قريباً على الأرض ليحيلها إلى غبار أبيض.. مر على المصرف الذي يعمل طوال الليل، فسحب بعض المال..

قال بصوت هامس:

- «(فابر).. لقد فعلت ما طلبته إليَّ.. لكني حتى هذه اللحظة لم أفعل إلا ما يقال لي أن أفعله.. لقد قمت بتغيير الجانب الذي أنا فيه، وبرغم هذا ما زلت أؤمر فأمتثل..»

- «أنت تتحسن ما دمت تقول هذا ..».

- «متى يمكنني أن أقوم بالتفكير لنفسي؟».

- «قريباً جداً .. لكن ثق بي أولاً .. هل تريد أن أقرأ لك قليلاً.؟ أنا قليل النوم ويمكن أن أقرأ لك قليلاً، ويمكن أن أقرأ لك في أثناء نومك أنت.. يقولون إن المرء يتذكر ما يهمس في أذنه في أثناء النوم..».

- «موافق».

كان من الممتع أن يسمع صوت الرجل العجوز المنهك يتردد في أذنه في الليل الصامت، وشعر بأنه يعرف الرجل من دهور.. الآن لم يعد (مونتاج) واحداً بل هو اثنان..

كان من الممتع أن يسمع العجوز وهو يكلمه ويرشده بينما هو متجه إلى كبنى الإطفاء..

- «كن رفيقاً بالناس يا (مونتاج) فهو لا يعلمون.. هم لايعرفون أنهم كنيزك هائل ملتهب بالنيران يعبر السموات لكنه لا بد أن يرتطم بالأرض يوماً ما .. هم الآن لا يرون إلا الضوء والوهج..

«أنا معجب بشبابك وحماستك، لكني أريدك أن تشعر بالشيخوخة.. أريد بعضاً من جبني فيك الليلة.. حين تقابل الكابتن ادن منه بحذر.. دعني أسمعه عن طريقك..

«لا تخف من الأخطاء.. لو داريت جهلك لما عاقبلك أحد، ولن تتعلم أبداً.. نحن الآن توءمان ولم تعد وحدك.. ولسوف أمنحك العون ولا نصح إذا ماضيق عليك (بيتي) الخناق..».

لم يكن الكلب الآلي هناك، وقد وقف مبنى الإطفاء صامتاً، حين انزلق (مونتاج) فوق العمود النحاسي.. وكان قلبه يخفق.. وكان (بيتي) واقفاً عند الفتحة وظهره له كأنه لا ينتظره..

فقط قال للرجال الذين يلعبون الورق:

- «حسن.. الآن يأتي مخلوق غريب يدعى في كل لغات العالم بلفظة (أحمق)..».

وفتح كفه كأنما ينتظر مكافأة، فدس (مونتاج) الكتاب فيها.. فألقى (بيتي) الكتاب في سلة المهملات دون أن ينظر لعنوانه.. وقال مشعلاً سيجاراً:

- «مرحبا بعودتك يا (مونتاج) وقد زالت الحمى وولى السقم.. هل تشاركنا لعبة (البوكر) القادمة؟».

كان (مونتاج) يلعب الورق مرتبكاً شارد الذهن.. شاعراً كأن يديه اللتين تجرأتا ولمستا (شكسبير) قد صارتا ملوثتين بالدم، وأن ذنبهما جلى للجميع وخاصة (بيتي) الذي توشك نظراته أن تكون حارقة.. ولمرتين اضطر إلى أن يغادر المجلس ويدخل الحمام ليغسل يديه.. قال (بيتي) وهو ينظر إلى (مونتاج):

- «نحن لا نكون وحدنا حين تصبحنا الأفكار النبيلة.. لكن البابا (ألكسندر) قال: (الكلمات كأوراق الشجر.. وحين تجد الكثير منها، يندر أن تجد تحتها فاكهة ذات قيمة).. ما رأيك في هذا يا (مونتاج)؟».

همس (فابر) في جهاز اللاسلكي:

- «خذ الحذر..».

- أو هذه: (قليل من العلم شيء خطير.. فاشرب حتى ترتوي لكن لا تكتف بتذوق ماء الينابيع.. هناك تكفي رشفات معدودة لتسميم العقل.. بينما الجرعات الكبرى تجعل العقل يفيق).. إلام يقودك هذا؟ سأخبرك.. معناه أنك حين تقرأ بضعة أسطر يتسمم عقلك بالكامل، وتجد نفسك متأهباً لتدمير العالم وقتل النساء والأطفال.. أنا أعرف هذا كله لأنني مررت به..».

نظر له (مونتاج) ولم يجد ما يقول.. هنا دق الجرس.. وبدأ صوت التيكرز يطبع العنوان الذي جاء منه البلاغ.. اتجه (بيتي) ببطء مبالغ فيه، وأوراق البوكر في يده، إلى الهاتف ومزق القصاصة التي تحمل العنوان.. نظر له ثم دسه في جيبه وعاد إلى الجلوس..

نظر له الرجال في دهشة فقال:

- «يمكن للبلاغ أن ينتظر أربعين ثانية حتى أجردكم من المال.. ولكن.. ليكن.. سنكمل هذا الدور فيما بعد.. فقط ضعوا أوراقكم ووجهها لأسفل على المنضدة، وهلموا إلى العربة».

ثم نظر إلى (مونتاج) وقال:

- «(مونتاج).. لا تبدو لي على ما يرام.. أكره فكرة أن المرض..».

- «أنا على ما يرام..».

وتشبت الرجلان بالقضيب النحاسي.. وسرعان ما انزلقا إلى التنين البخاري الذي يزأر إذ يعود إلى الحياة.. وصاح الكابتن:

- «هلموا بنا!».

ما كان الكابتن معتاداً القيادة بنفسه لكنه الليلة تولى قيادة المركبة، وراح المشمع الأسود الذي يرتديه يتطاير في الهواء فكأنه وطواط آدمي هائل ينقض على عجلة القيادة.. وراح خداه الورديان يلمعان في الظلام، وهو يضحك في توحش..

- «هلموا بنا.. هلموا كي نمنح العالم السعادة يا (مونتاج)..».

وتوقفت العربة وهبط الرجال منها، أما (مونتاج) فلم يستطع أن يفك قبضته عن الحاجز الذي يتمسك به..

لن أستطيع عمل هذا.. كيف أعود لحرق الكتب؟ ودنا منه (بيتي) وقد صارت له رائحة الريح التي عصفت به طيلة الرحلة ونظر له في إمعان:

- «والآن يا (مونتاج)؟».

نظر له (مونتاج) ولم يتكلم وإن غمره الذهول..

وأخيراً قال (مونتاج) ببطء:

- «لماذا وقفنا أمام بيتي؟».

❖❖❖

الجزء الثالث

نيران الحرق اللامعـــة

تألقت الأنوار وانفتحت أبواب المنازل عبر الشارع لمشاهدة هذا الكرنفال.. ووقف (بيتي) و(مونتاج) يحدقان في المنزل أمامهما.. أحدهما برضا جاف والآخر بذهول.. في الدائرة التي ستلتهما النيران بعد قليل.

قال (بيتي):

- «حسن.. هأنتذا قد فعلتها.. (مونتاج) العجوز حاول أن يطير قرب الشمس، وهاهو ذا قد حرق جناحيه.. وهو يتساءل لماذا.. ألم ألمح بما يكفي حين أرسلت الكلب إلى دارك؟».

كان وجه (مونتاج) خالياً من التعبير.. ووجد أنه صار صنماً ينظر إلى باب الجيران الذي تحيطه الزهور.. فصاح (بيتي):

- «لا.. لا أصدق أن تكون تلك البلهاء خدعتك.. زهور.. فراش.. غروب.. كل هذا في ملفها.. ربماه! انظر لهذه النظرة المريضة على وجهك! لقد حامت حولك راسمة على وجهها تعبير (أنا أكثر منك

طهراً).. هؤلاء لا يملكون موهبة إلا أن يجعلوا الآخرين يشعرون بالذنب.. إنهم ينهضون كشمس منتصف الليل ليملؤوا فراشك بالعرق!».

وانفتح الباب الأمامي وبرزت (ملدريد) وهي تجري، وقد تقلصت قبضتها على حقيبة ثيابها، بينما عربة أجرة تتوقف.

- «مليدريد !».

جرت وجسدها متصلب، ووجهها معفر بالمساحيق، ولم يعد لها فم لأنها لم تضع أحمر شفاه..

- «(مليدريد).. أنت لم تقدمي هذا البلاغ!».

وضعت الحقيبة في سيارة الأجرة، وركبت وهي تغمغم:

- «يا للأسرة المسكينة.. يا للأسرة المسكينة.. كل شيء ضاع.. كل شيء ضاع الآن...».

ووضع (بيتي) يده على كتف (مونتاج)، بينما سيارة الأجرة تختفي بسرعة سبعين ميلاً في الساعة.. دوى صوت تحطيم، ودار (مونتاج) حول نفسه ليرى (ستونمان) و(بلاك) يحملان القنوس ويهشمان زجاج النوافذ ليمنحا النار المزيد من التهوية.. وقال (مونتاج):

- «هذا يحدث لي أنا ...».

قال (بيتي):

- «من المدهش أن كل واحد يؤمن بأن هذا لن يحدث لي أنا.. الآخرون سيموتون وأنا سأعيش للأبد.. لا تبعات ولا مسؤوليات، لكن ما إن تصل التبعات إليك يكون الوقت متأخراً جدّاً.. أليس كذلك يا (مونتاج) قال (فابر) في سماعة الأذن:

- «(مونتاج).. هل يمكنك الابتعاد الآن؟».

حاول (مونتاج) الابتعاد، لكنه لم يشعر بالخرسانة تحت قدميه، ولم يشعر بالعشب.. وأشعل (بيتي) قاذف اللهب وقال:

- «ترى ما الجميل إلى هذا الحد في النار؟ مهما بلغ عمرنا فما الذي يفتننا فيها؟ ماهي النار؟ العلماء يقولون سفسطة عن الاحتكاك والجزئيات لكنهم لا يعلمون حقاً ماهي، وجمالها أنها تدمر التبعات والمسؤوليات معاً.. كلما تعقدت مشكلة ما فعليك بالمحرقة.. والآن يا (مونتاج) أنت عبء، ولسوف ترفع النار هذا العبء عن كاهلي.. نار مطهرة.. فنية.. عملية..».

كان (مونتاج) يرمق المشهد الغريب، والأثاث الملقى على الأرض يحترق في هذه الساعة من الليل، بينما الكتب تصفر أوراقها وتتفحم.. عندها تبدو سخيفة لا تستحق كل هذا العناء.. (مليدريد) بالطبع هي من فعلها.. هي من عرفت أين يداري الكتب وأبلغت رجال الإطفاء.. (مليدريد).. (مليدريد)..

- «الآن يا (مونتاج) أريدك أنت أن تحرق بيتك بقاذف النار.. أريد أن تطهر نفسك بنفسك..».

تناول (مونتاج) قاذف اللهب وصوبه، فخرجت منه ألسنة النيران مفعمة بالحرارة والعاطفة والضوء أكثر مما حسبه في القاذف، حرق جدران غرفة النوم وصندوق مساحيق التجميل، ومائدة الطعام والأطباق وكل ما قد يذكره أنه عاش هنا، في هذا المنزل المقفر مع امرأة غريبة ستنساه غداً.. بل نسيته الآن بالفعل وهي تصغي للراديو المثبت في أذنها.. لو لم يكن هناك حل لمشكلته فالآن لم تعد هناك مشكلة أيضاً! النار هي دواء كل شيء.. حرق غرفة التلفزيون فانفجرت الدوائر الكهربية وأعمدة التفريغ، كأنما أراد أن يهدي الغرفة تلك الزهرة الصفراء الكبيرة الملتهبة.. وقال (بيتي):

- «حين تنتهي، أنت رهن الاعتقال..».

الآن صار السيرك كومة من الرماد الأسود.. ووقف (مونتاج) وقاذف اللهب في يده، والعرق يسيل أنهاراً تحت إبطيه، ووجهه صار مكسوّاً بالسناج.. في النهاية استطاع أن يتكلم:

- «أكانت زوجتي صاحبة البلاغ؟».

هز (بيتي) رأسه وقال:

- «من الحمق أن تعتقد أن قراءتك بعض الشعر يمكنها أن تجعلك تمشي على المياه.. فلتر إلى أين قادتك الكتب.. أنت في الوحل حتى شفتيك، ولو أنني هززت إصبعي الأصغر لغرقت أنت..».

شعر (مونتاج) بالوهن والضعف وبأن ساقيه لا تتحملان ثقله.. وضربه (بيتي) على رأسه ضربة جعلته يسقط للوراء.. وسقطت السماعة الخضراء التي كان (فابر) يهمس فيها، فالتقطها (بيتي) مقطباً..

- «حسن.. الأمر أخطر مما توقعت.. رأينك تميل رأسك أكثر من مرة كأنك تصغي.. لسوف نقتفي أثر هذه ونظفر بصديقك..».

- «لا!».

قالها (مونتاج) ورفع صمام الأمان عن قاذف اللهب..

لم يتحرك (بيتي) لكنه نظر إلى يدي (مونتاج) في عدم فهم، و(مونتاج) نفسه نظر ليديه كأنما يرى ما تنتويان عمله.. فيما بعد لم يعرف هل كانت يداه هما الفاعلتان أم تلك النظرة الساخرة المتهكمة في عيني (بيتي) التي دفعته إلى اقتراف القتل..

في اللحظة التالية تحول (بيتي) إلى وهج صارخ.. لم يعد له علاقة بالبشر وسط النار السائلة التي صوبها (مونتاج) عليه.. وصدر صوت هسيس كأنها بصقة هائلة تغلي فوق موقد ساخن لدرجة الاحمرار.. وسد (مونتاج) أذنيه كي لايسمع الصوت.. وصرخ.. صرخ.. صرخ.. وفي النهاية تكوم (بيتي) على الأرض..

صاح (مونتاج) في رجلي الإطفاء الآخرين، وهو يغالب الغثيان:

- «استديرا..».

استدارا بوجهين أبيضين من الرعب والعرق يغمرهما، فأطلق اللهب على رأسيهما حتى طارت الخوذتان وسقطا أرضاً بلا حراك..

ومن ركن الزقاق جاء الرعب الميكانيكي.. يثب على أرجله الثماني وسحابة من الدخان الأسود تحيط به، وإبرة (البروكايين) تلوح غضبي في الهواء.. فتلقاه (مونتاج) بهدية النيران كأنها زهرة ذات بتلات حمراء وزرقاء وصفراء.. طار الكلب الآلي إلى الوراء، ولم يجد الوقت الكافي إلا ليوخز ركبة (مونتاج) بإبرته، ثم ليصطدم بشجرة ومعه النيران.. حاول أن يطعن عدة مرات بالإبرة، قبل أن ينفجر وتتبعثر أجزاؤه الإلكترونية في كل صوب..

كان (مونتاج) الآن يشعر بتنميل شديد في ركبته، وخشي أن يفقدها.. نهض فوجد أنه لا يشعر بها.. إنه يجرها خلفه كأنها كفارة عن خطيئة لا يعرف ماهي بالضبط.. الشارع الآن خال مظلم إلا من المنزل الذي يحترق.. الكلب هنا.. (بيتي) هناك.. الرجلان في مكان ما..

(بيتي).. أنت لم تعد مشكلة.. كنت أنت القائل دوماً: لا تواجه المشاكل.. بل احرقها.. وداعاً يا كابتن.. أنت أحمق يا (مونتاج).. أحمق لعين.. معتوه.. معتوه جداً.. أحمق.. ومعتوه.. انظر إلى الفوضى.. كل هذا بسبب حدة الطبع والغرور.. لم تكد تبدأ وهأنتذا قد تقيأت كل شيء على الآخرين وعلى نفسك..

راح يبحث في الحديقة فوجد أربعة كتب لم تطلها النيران.. لقد نسيت (مليدريد) هذه ولسوف ينقذها..

صوت عربات الإطفاء قادمة من بعيد.. راح يثب فوق ساق واحدة مبتعداً.. (بيتي) أراد أن يموت.. لا شك في هذا.. من الغريب أن تقف تبتسم بسخرية في وجه من يهددونك بالموت، وبهذا تجعلهم يجنون و..نعم.. (بيتي) أراد الموت وقد ناله.. آه.. رباه! أنا آسف.. أنا آسف..

حاول أن يسترجع أيامه السابقة.. حملات الحريق.. ذبابات النار.. الاستدعاءات والبلاغات.. رباه.. كل هذا قبل الغربال والرمال.. كل هذه التغيرات في بضعة أيام! إنها أكثر مما يجب بالنسبة لعمر كامل..

الآن بدأت رجله تتحول إلى رجل من جديد، واستعادت إحساسها..

عليه أن يفر، وأن يتماسك قبل أن يجدوه.. عليه أن يفر.. ولكن لأين؟ ليس لديه مكان يفر إليه.. ليس لديه صديق إلا (فابر).. عندها أدرك أنه الحقيقة يجري نحو بيت (فابر).. لكن (فابر) لن يخبئه.. سيكون هذا انتحاراً حتى مجرد المحاولة.. لكنه سيذهب على كل حال.. ومن عقل (فابر) سيجد الوقود الذي يعيد له إيمانه بقدرته على الاستمرار حيّاً..

ونظر للسماء ليرى طائرات هليكوبتر الشرطة.. دستتان منها تحوم كالفراش الذي أربكه الخريف.. تنقب عنه في كل صوب.. تهبط كأنها رقائق الثلج تنحدر للأرض..

مشى في الشارع الخالي، الذي بدا له كحلبة مصارعة.. تنتظر ضحايا مجهولين، سوف يواجهون قتلة مجهولين، ومن مكان ما سمع مذياعاً يعلن الخبر: لقد تم إعلان الحرب..

امش ببطء.. بهدوء.. لا تستدر.. لا تبد مهموماً.. امش فحسب.. امش.. امش..

واقتربت منه سيارة بسرعة لا تصدق.. وبدا أنها تزيد من سرعتها.. خطر له أنها سيارة شرطة وأنهم رأوه، لكنها مرت على بعد سنتيمترات منه، وسمع صوت ضحكات الصبية من داخلها.. أترى هؤلاء هم من قتلوا (كلاريس) في إحدى الليالي؟ لا بد أنهم أرادوا أن يدهموه ويتسلوا بقتله، ثم عدلوا عن ذلك كي لا تنقلب السيارة..

سرعان ما وصل (مونتاج) إلى البيت الذي اختاره.. تسلل عبر الحديقة الخلفية، وتساءل في سره: مسز (بلاك).. أتراك نائمة الآن؟ هذا محزن، لكن زوجك أحرق بيوت الكثيرين دون أن يسأل أو يندم.. والآن لا بد من أن يأتي دورك.. تسلل إلى الفناء فالمطبخ، ووضع الكتب التي يحملها هناك.. ثم غادر المكان مسرعاً..

ومشى في شوارع المدينة، وفي طريقه اتصل بالإنذار من كابينة هاتف خارج متجر موصد.. سرعان ما سمع صوت السرينات وجاءت سيارات الإطفاء..

جاءت لتحرق بيت المستر (بلاك).. لتجعل زوجته تقف ترتجف في هواء الصباح الباكر البارد بينما يتداعى السقف.. لكنها ما زالت نائمة حاليّاً..

- «(فابر)!».

تأخر الرجل كثيراً حتى فتح الباب الخلفي، لكنه في النهاية جاء ووقف الرجلان يتبادلان النظرات، كأنما لا يؤمن كل منهما بوجود الآخر.. في النهاية أدخله الرجل، ووقف على الباب بعض الوقت يسترق السمع.. ثم أغلقه وعاد.. قال (مونتاج):

- «قد مات الكابتن، واحترق جهاز السماع.. كان ينوي أن يقتفي أثرك، لهذا أحرقته بقاذف اللهب.. (بيتي) كان صاحبي وقد أحرقته.. احترق منزلي.. (ميلي) قد رحلت.. وضعت بعض الكتب لألفق تهمة لصديق.. رباه! ما أكثر الأشياء التي قمت بها في أسبوع!!».

ومد يده بما كان معه من مال إلى الرجل وقال:

- «هذه مدخراتي.. احتفظ بها لعلك تحتاج إليها.. ربما أكون أنا ميتاً عند الظهيرة».

لم يعلق (فابر) وإنما قال:

- «هل تعرف أن الحرب قد بدأت؟».

- «سمعت هذا في الطريق..».

– «رباه! لشد ما تبدو بعيدة بالنسبة لمشاكلنا هنا.. أنصحك أن تتجه إلى النهر.. حاول أن تتبع الخطوط الحديدية العتيقة كي تقودك إلى الريف.. يقال إن الريف يزخر بالمتشردين من هنا إلى (لون أنجليس).. هناك الكثير من الدرجات الجامعية من (هارفارد) متناثرة على طول الطريق.. إنهم يحاولون البقاء على قيد الحياة، والحكومة لم تعتبرهم قط خطراً إلى الحد الذي يدفعها لمطاردتهم.. حاول أن تقابلهم ولسوف ألحق بك في (سانت لويس).. سأركب حافلة الخامسة صباحاً.. أما عن مالك فلسوف أستخدمه فيما يفيد.. هل تبغي النوم بعض الوقت؟».

– «أفضل مواصلة الهرب..».

ونهض الرجال إلى غرفة النوم، فأزاح بعض الأغطية عن جهاز تلفزيون صغير في حجم البطاقة البريدية، وفتحه فظهر على الشاشة وجه (مونتاج) فيما قال المذيع:

– «م.. و.. ن.. ت.. ا.. ج.. (جاي مونتاج).. ما زال هارباً، لكن الشرطة أرسلت في إثره كلباً إلكترونيّاً جديداً، وهذه الكلاب لا تفشل أبداً.. الكلب الإلكتروني يمكنه تذكر عشرة آلاف رائحة دون خطأ.. يسرنا الليلة أن نقدم لكم مطاردة (مونتاج) في السهرة عبر الكاميرات التلفزيونية، التي زودت بها طائراتنا الهليكوبتر..».

ارتجف (فابر) ونظر إلى جدران منزله.. إلى غرفة النوم.. إلى الأريكة التي جلس فوقها (مونتاج).. وتشمم (مونتاج) الجو.. رائحته

الخاصة.. أدرك أنه موجود على وفي كل شيء هنا.. على مقبض الباب فوق الأريكة.. ونظر إلى (فابر)، فوجد الرجل يكتم أنفاسه كأنما يحاول ألا يلوث رئتيه برائحة (مونتاج)، حتى لا يتسرب هذا إلى داخله..

- «(الهليكوبتر) تضع الكلب الآن في مكان الحريق..».

وعلى الشاشة ظهرت الهليكوبتر تهبط وقد تعلق منها شيء مغطى بالأغطية، وقد ازدحم الناس حول بقايا الحريق.. ونظر (مونتاج) إلى هذا السيرك مبهوراً مفتوناً مع قدر من الاستمتاع.. رباه.. كل هذا من أجلي!

قال له (فابر):

- «الآن يجب أن تفر.. سأحاول تعطيلهم بعض الوقت..».

- «ولماذا؟ يمكنك أن تحرق الملاءات والسجادة.. امسح المقابض بالكحول.. رش مبيد الذباب لبعض الوقت.. افتح أجهزة التكييف عن آخرها.. ربما ساعدك هذا على الخلاص من رائحتي..».

- «سأفكر في هذا..».

- «املأ حقيبة بثيابك القديمة المتسخة.. كلما كانت قذرة كان هذا أفضل.. جوارب.. ثياب داخلية.. سآخذها معي عيل سبيل المزيد من التضليل.. والآن وداعاً..».

وافترق الرجلان، وراح (مونتاج) يجري والحقيبة في يدهن بينما بدأ المطر ينهمر من السماء غاسلاً الطريق.. ومن نوافذ البيوت كان يرى الناس جالسين أمام أجهزة التلفزيون الجدارية يراقبون الكلب.. الكلب العملاق على الجدار يزحف كأنه سحابة صامتة من النيون نحو بيت (فابر)..

وتصلب (مونتاج) رعباً...

وقف الكلب على الباب يتشممه.. إبرة البركايين تخرج من أنفه وتدخل.. تخرج وتدخل.. ثم دون مزيد من الحركة ابتعد ركضاً.. بصعوبة أقنع (مونتاج) أن هذا ليس مسلسلاً مثيراً لكنها حياته نفسها .. صرخ ليرغم نفسه على الجري..

وألصق السماعة التي أعطاه (فابر) إياها على أذنه ليسمع ما يقال:

- «الشرطة تطلب من الساكنين في منطقة (إلم) أن يفتح كل منهم نافذته.. لن يتمكن الهارب من الفرار لو نظر كل واحد من نافذته الدقيقة التالية! استعدوا!!».

بالطبع! لماذا لم يفكروا في هذا من قبل؟ كيف لم تجرب هذه اللعبة طوال هذه الأعوام؟ إنه الرجل الوحيد الذي يركض في الشوارع..

- «عند العدد عشرة.. واحد .. اثنان!».

شعر بالمدينة تصحو.. تضع أيديها على مقابض الأبواب.. حلقه يحترق والدموع تحرق عينيه.. لا بد من أن يصل لنهاية الطريق حالاً..

أخيراً عبر آخر صف من المنازل، وانحدر عبر مدرج يقود إلى الظلمة..

- «عشرة!».

وانفتحت الأبواب كلها.. يمكنه أن يتخيل آلاف الوجوه الشاحبة بعيون مذعورة، تختلس النظرات من وراء الستائر كأنها حيوانات تنظر من أقفاصها الكهربية..

لكنه كان عند النهر الآن..

مشى في الماء، وابتل حتى الجلد فقط كي يتأكد من أن هذا حقيقي.. شرب الكثير وتمخط بعضه من أنفه.. وحين وصل للضفة الأخرى ارتدى ثياب (قابر) القذرة، وألقى ثيابه القديمة في النهر..

الآن ينزلق أكثر فأكثر إلى داخل النهر.. سمع صوت المروحيات والتمعت الأضواء، لكنه غاص تحت الماء وسرعان ما عبر النهر.. وشعر كأنه ممثل يغادر مسرحاً مملوءاً بالممثلين.. إنه يغادر عالماً من الحقيقة المخيفة إلى عالم من الحقيقة التي لا يمكن أن تكون حقيقة لأنها جديدة عليه..

كان النهر هادئاً يتلوى مبتعداً عن الناس الذين يلتهمون الظلال في الإفطار، والدخان في الغداء، والأبخرة في العشاء.. للمرة الأولى يرى النجوم في السماء منذ اثني عشر عاماً..

رأى القمر في السماء.. لكن ما مصدر ضوء القمر؟ الشمس طبعاً.. الشمس تدوم وتحرق.. الشمس والزمن والحريق.. الشمس تحرق كل يوم.. والزمن منهمك في حرق الأعوام والناس بدون عون منه.. لو أنه أحرق الأشياء مع رجال الإطفاء، لكان كل شيء يحترق.. الآن تصطدم قدماه بالحصى والحجارة.. إن النهر قد حمله إلى الشاطئ..

توقع أن تنفتح الأشجار ويبرز الكلب الإلكتروني أو تحلق طائرات الهليكوبتر، لكن لم يحدث شيء لدهشته.. ومشى وسط خضرة الريف مندهشاً.. يذكر مرة رأى فيها هذه المشاهد في صباه، حين عرف أن الريف صامت والماشية ترعى تحت الأشجار، والكلاب تنبح خلف قطعان الخراف البيضاء..

نام وسط الأعشاب ينظر للسماء والنجوم.. توقع في كل لحظة أن يسمع خطوات أو يرى الكلب الإلكتروني، لكن هذا لم يحدث.. نام لكنه لم ينم فعلاً لأن كل روائح الريف جعلته ينام دون أن يغلق عينيه..

كان بحاجة إلى راحة.. إلى أن يعطيه الكون فسحة من الوقت ليفكر في كل الأفكار التي يجب أن يفكر فيها.. كوب من اللبن.. أجاصة.. تفاحة..

الكثير جداً من الأرض! لا بد أن هناك مليون ورقة شجر على الأرض.. والروائح.. كانت هناك رائحة كالبطاطس المقطعة.. نيئة بيضاء من فرط ما ارتشفت شعاع القمر طوال الليل.. رائحة كالمخللات

ورائحة كالبقدونس على مائدة الإفطار في البيت.. رائحة صفراء كالخردل في مرطبان.. حتى أنامله صارت لها رائحة الربسوس..

كلما تنفس أكثر دخل المزيد من الأرض إلى أحشائه.. إنه ليس خاوياً.. هناك دوماً الكثير من الأرض كي تملأ صدره..

مشى على الطريق القديم الوحيد الذي غطته الأتربة، وأثار دهشته أنه واثق من حقيقة لا يمكن إثباتها..

(كلاريس) مشت هنا حيث يمشي الآن.. وفي نهاية الطريق رأى النار..

لم تكن ناراً كأية نار.. كات تمنح الدفء لا الاحتراق، وأثار دهشته أن النار قد تعطي كما تأخذ أحياناً.. دنا منها متلذذاً بشعور غمره بأنه مجرد حيوان خرج من الغابة وقد جذبته النار.. حيوان يغطيه الفراء والبلل يدنو من النار.. النار التي تمنح الدفء، التي التفت حولها أيد بلا أذرع تصطلى.. هنا لا يوجد للوقت أهمية.. هنا يمكنك أن تجلس كما تشاء وتقلب الكون كله كأنك تقلب عصا في هذه النار..

وكانت الأصوات تتكلم.. لم يفهم عم تتكلم لكنها كانت تتكلم عن كل شيء.. لم يكن في الكون شيء لا تقدر هذه الأصوات على الكلام عنه.. وأخيراً قال له أحدهم:

- «حسن.. يمكنك الدنو.. مرحباً بك معنا..».

مشى (مونتاج) نحو النار، وكان الرجال الخمسة المسنون جالسين هناك يلبسون سراويل قطنية زرقاء وسترات زرقاء قاتمة.. لم يدر ما يقول لهم.. كانوا ملتحين لكنها لحى مشذبة أنيقة وأيديهم نظيفة..

- «هل لك في قهوة يا (مونتاج)؟».

وناولوه كوباً من القصدير فشرب منه بعض السائل الأسود.. احترقت شفتاه لكن لا بأس..

مد له أحد الرجال يده بزجاجة وقال:

- «اسمي (جرانجر).. اشرب هذا أيضاً.. بعد دقائق سيغير التركيب الكيميائي لعرقك.. ولسوف تكون لك رائحة رجل آخر.. فلن يجدك الكلب..».

شرب (مونتاج) السائل المر..

- «ستكون رائحتك كريهة كالوشق.. لكن لا بأس..».

- «أنتم تعرفون اسمي؟».

أشار الرجل إلى جهاز تلفزيون صغير وقال:

- «إن المطاردة اتخذت شكلاً آخر تماماً.. لقد انتهت آثارك عند النهر، ومعنى هذا أن المشاهدين سيفقدون حماستهم لأن تفتيش النهر

يستغرق الليل كله.. لهذا اتجهوا إلى مكان آخر ليبحثوا للمشاهدين عن كبش فداء.. (مونتاج) آخر! هل ترى؟ الهليكوبتر تهبط.. هناك رجل بائس يمشي وحده في الشارع.. هذا غريب.. غير معتاد.. ربما هو الأرق أو أنه مخلوق شاذ.. بالطبع تعرف الشرطة عادات البط الشاذ من هذا النوع، وهم يسجلون ذلك.. الآن يتضح أن هذه المعلومة بالغة الأهمية.. كانوا بحاجة إلى أحمق يمشي في الشارع ليحفظوا ماء وجوههم وهاهو ذا..».

وعلى الشاشة جرى الرجل وقد رأى الكلب الإلكتروني يجري وراءه.. هنا أطلقت الطائرة دستة من الطلقات حول الرجل لتنغرس في الأرض صانعة قفصاً معدنياً من حوله.. نظر الرجل إلى أعلى في ذعر غير فاهم ما يحدث، ولفافة تبغ ما زالت مشتعلة في يده.. في اللحظة التالية انقضت عليه الكاميرا والكلب في آن واحد.. وبرز المحقن وإنغرس في عنقه فلم يجد وقتاً للاستغاثة.. إخراج بارع حقاً..

إظلام تدريجي.. ظلام..

ثم ظهر معلق على الشاشة وقال:

– «انتهى البحث.. مات (مونتاج) وانتقم المجتمع من جريمة ارتكبت في حقه..».

قال (جرانجر):

- «هل لاحظت أن وجه الرجل لم يظهر في أية لقطة؟».

ثم مد يده يصافح (مونتاج) المذهول:

- «مرحباً بعودتك من الموت! أقدم لك المجموعة.. هذا (فريد كليمنت).. كان أستاذاً في (كمبريدج) قبل أن تتحول إلى (معهد الهندسة النووية).. د. (ويست) من جامعة (لوس أنجيليس).. قدم دراسة قيمة عن الأخلاق لكنها منسية الآن.. المحترم (بادوفر) كان يحاضر في مدارس الأحد قبل أن يطرد بسبب آرائه.. أما محسوبك فكتب دراسة عن العلاقة بين المجتمع والفرد.. وهأنذا هنا الآن..».

- «أنا لست مثلكم.. كنت أحمق طوال حياتي..».

- «ليس منا إلا من كان أحمق بشكل ما.. هل لديك ما تقدمه لنا؟».

- «لدي جزء من التوراة لكني أضعته.. إلا أنه ما زال هنا!».

وأشار إلى رأسه..

- «لا بأس..».

ونظر الرجل إلى الآخرين متسائلاً:

- «هل لدينا جزء من التوراة؟».

قال آخر:

- «رجل يدعى (هاريس) من (يانجزتاون)..».

أمسك (جرانجر) بكتفي (مونتاج) في صرامة وقال:

- «(مونتاج).. خذ الحذر وحافظ على صحتك.. لو مات (هاريس) لكنتَ أنت نسختنا الوحيدة من التوراة..».

- «لكني نسيت الكثير..».

- «ستتذكر.. ستتذكر حين يتطلب الأمر.. إن كلاًّ منا لديه ذاكرة فوتوغرافية، لكننا ككل البشر نكافح حياتنا كلها كي نحجب ما هو هنالك فعلاً.. هل تتمنى أن تقرأ (جمهورية أفلاطون) يوماً ما؟».

- «نعم..».

- «أنا (جمهورية أفلاطون)! هل تريد قراءة (ماركوس أوريليوس)؟ مستر (سيمون) هو (ماركوس أوربليوس)..».

- «كيف حالك؟».

- «أتمنى أن تقابل (سويفت) مؤلف (رحلات جليفر).. الكتاب السياسي الشرير.. أما هذا فـ (تشارلز داروين) وهذا (شوبنهازر) وهذا (آينشتاين).. نحن هنا يا (مونتاج).. (أريستوفان) والمهاتما غاندي و(بوذا) و(كونفوشيوس) و(توماس بيكوك).. كذلك نحن نحرق الكتب.. نحفظ ما بها ثم نحرقها حتى لا يجدها أحد.. أكثر

الطرق أمناً أن تبقى الكتب في العقول حيث لا يشك أحد في وجودها .. كل ما نقوم به هو إبقاء المعلومات التي نعتقد أن البشرية تحتاج إليها .. ولا ننوي أن نحارب أحداً لأنه لو دُمِّرْنَا لانتهت المعلومات للأبد .. لكن لو انتهت الحرب التي يخوضها هذا البلد فلربما نتولى نحن الأمر..».

- «كم منكم هنا؟».

- «آلاف على الطريق وسكك الحديد المهجورة.. متشردون من الخارج.. ومكتبات من الداخل.. لم تخطط للأمر في البداية.. كل واحد كان عنده كتاب يريد أن يتذكره وقد فعل. ثم خلال عشرين عاماً قابل بعضنا بعضاً، وتعلمنا أنه لا أهمية لنا .. نحن مجرد مغلفات للكتب.. سنحاول أن نظل أحياء حتى تنتهي الحرب، عندها قد نجلس ليسمع كل منا ما يحفظه وتعود الكتب إلى العالم ثانية.. ربما نكرر الأمر ثانية لو تكرر الكابوس من جديد ..».

- «ولماذا تثقون بي؟».

- «لأن وجهك يكفي.. أنت لم تر وجهك في المرآة من فترة.. أنت تبدو شنيعاً والمدن لا تعبأ بالمخابيل من أمثالنا .. لا يهم إن كنا نحفظ (الماجنا كارتا) أو الدستور.. نحن لا أهمية لنا ..».

وانطفأت النار، فحاول (مونتاج) أن يرى في عيون هؤلاء الرجال بريق العلم الذي يحملونه، لكنه لم ير شيئاً خاصاً.. مجرد رجال لا يميزهم شيء.. هم مجرد كتب تمشي على قدمين بانتظار عميل

يأتي يوماً ما .. عميل قد يقلب صفحاتهم بيد متسخة أو نظيفة لكنه آت لا محالة..

قال أحدهم:

- «لا تحكم على الكتاب من غلافه!».

وضحك الجميع في صوت خفيض وهم يمشون مع النهر..

انطلقت النفاثات تزأر في السماء، وقال (مونتاج):

- «زوجتي في المدينة هناك..».

- «هذا مؤسف.. إن المدن لن تكون مكاناً في الأيام القادمة..».

- «من الغريب أنني لا أفتقدها .. لن اشعر بشيء لو أنها ماتت..».

قال (جرانجر):

- «اسمع يا مونتاج).. كان لي جد بارع.. رجل يجيد استعمال يديه.. ويربي الحمام ويعزف الكمان.. حين مات حزنت لأنني لم أبك عليه، ولكن على كل الأشياء الجميلة التي لن يصنعها ثانية.. كم من تماثيل لن تخرج للعالم، وكم من سلالات حمام لن تفرخ، وكم من نكات لن تقال، وكم من ألحان لن تعزف على الكمان..».

وأنت يا (مونتاج).. ماذا قدمت للعالم؟

رماد..

قال (جرانجر) مواصلاً كلامه:

- «كان جدي يقول إن كل إنسان لا بد أن يترك شيئاً من بعده وإلا فلن يذهب للجنة.. يترك طفلاً.. جداراً.. نبتة.. قصيدة.. كتاباً.. شيئاً لمسته يداك.. وكلما نظر الناس للجدار أو النبتة وجدوك فيها.. لا يهم أن تكون بارعاً.. المهم أن تغير شيئاً عما كان عليه قبل أن تمسه..

«هل ترى؟ جدي مات من زمن بعيد، لكن لو فتحت جمجمتي لوجدت بصمات أصابعه على كل تعريجة من مخي.. لقد لمسني..».

هنا صاح (مونتاج):

- «انظر هناك!».

وفي هذه اللحظة بدأت الحرب وانتهت..

❖❖❖

فيما بعد لم يستطع الرجال حول (مونتاج) تذكر هل رأوا بالفعل شيئاً.. ربما أقل ضوء وحركة في السماء. لكن القنابل كانت هناك، وقد هبطت بسرعة مفزعة. فوق مدينة الصباح. لقد انتهى القصف.. بمجرد أن تحركت أجهزة القذف انتهت الحرب.. الآن مرت ثلاث ثوان وقد عبرت طائرات العدو نصف العالم مبتعدة، كأنها رصاصات

لا يؤمن الرجل البدائي بوجودها لأنها غير مرئية.. لكن القلب يتمزق فجأة، والجسم يتهاوى، والدم يتناثر في الهواء.. العقل يسمح لنفسه ببضع ذكريات ثمينة، ثم – ولدهشته- يموت..

أبقى (مونتاج) القنابل في الهواء للحظة بعقله ومد يداً معدومة الحيلة إليها:

- «اجروا!!».

قالها لـ (مليدريد).. لـ (فابر).. لـ كلاريس).. لكن (كلاريس) ماتت، و(فابر) في الحافلة الآن.. الحافلة المتجهة إلى أفق مجهول، حيث لم تعد لوجهتها قيمة ما..

- «ابتعدوا!!».

لا بد أن (مليدريد) كانت غائبة في دوامة الأصوات والألوان في غرفة الفندق حين رأت وجهها.. وجهها الحقيقي في الثواني التي سبقت سقوط القنبلة، ثم حملها الانفجار مع آلاف غيرها إلى القبو حيث حيث الدوامة الكبرى..

ودفعتهم موجة الانفجار فتساقطوا كقطع الدومينو، وامتلأت عيناه بالغبار وذرات الإِسمنت..

كانوا الآن على الأرض يتشبثون بالعشب.. أصابعهم مخالب مغروسة في الطين، وهم يصرخون كي لا تنفجر آذانهم.. كي لا ينفجر تعقلهم.. كأنهم يحتجون على الريح التي أدمت وجوههم وجعلت أنوفهم تنزف..

ومن جديد ساد الصمت.. هوى على العشب ليمنحهم القدرة على أن ينظروا حولهم، ويحفروا هذا اليوم في حواسهم للأبد.. وماتت الريح.. كان الهواء بارداً ينذر بمطر قادم..

ونهض (جرانجر) وتحسس ذراعيه.. وهو يسب يسب.. الدموع تنحدر على وجهه.. نهض إلى النهر ينظر إلى المدينة:

- «إنها مسطحة.. المدينة تبدو ككومة من مسحوق الخبيز.. لقد ولت..».

ثم بعد مدَّةٍ طويلة قال:

- «أتساءل كم واحداً عرف بالنهاية.. كم واحداً شعر بالدهشة؟».

أشعل أحدهم النار فراحت تتوهج.. وكف الرجال عن النظر وشرعوا ينظرون إلى النار..

تناول (جرانجر) لفافة من المشمع وأخرج منها قطعة من اللحم وقال:

- «سنأكل لقمة ثم نتجه نحو أعلى النهر.. لا بد أنهم سيريدوننا هناك..».

أخرج أحدهم مقلاة.. وبدأ الطهي.. تصاعدت رائحة طيبة وراحت قطعة اللحم تتراقص في المقلاة، أمام عيون الرجال الصامتة. ونظر (جرانجر) إلى النار وقال:

- «العنقاء..»..

- «ماذا؟..»..

- «كان هناك طائر سخيف يدعى (العنقاء) في الماضي.. في كل مئة عام كان يبني لنفسه محرقة ويحرق نفسه.. لكنه كان يولد ثانية من الرماد في كل مرة.. يبدو أننا نفعل الشيء نفسه لكننا نملك شيئاً لا يعرفه الطائر اللعين.. نحن ما اقترفناه.. وطالما لن ننسى هذا سيأتي اليوم الذي نكف فيه عن إشعال المحرقة والوثب فيها ..»..

وأبعد المقلاة عن النار وجلسوا يأكلون في صمت وشرود.. من جديد قال (جرانجر):

- «سنقابل أناساً يسألوننا : من نحن.. سنقول لهم إننا بلا أهمية.. لا عمل لنا إلا التذكر.. سنصنع أكبر رفش في الكون نحفر به أكبر قبر في الكون، وندفن فيه هذه الحرب..»..

كان النهار يتألق باستمرار، وعادت الطيور التي فرت إلى غصون الأشجار.. ومشى الرجال أعلى النهر.. نظر (مونتاج) إلى الرجال لكن (جرانجر) أشار له كي يتقدمهم.. كانوا صامتين.. فقد كان هناك كثير من الأفكار وكثيرٌ مما يجب تذكره.. ربما فيها بعد يمكنهم أن يتبادلوا الكلمات..

حين يأتي دوره فماذا عساه يقول؟ ماذا عساه يقدمه في يوم كهذا كي يجعل الرحلة أسهل؟ هناك موسم لكل شيء. هناك وقت للانهيار ووقت للتماسك.. وقت للصمت ووقت للكلام.. وماذا بعد هذا؟

على جانبي النهر كانت هناك شجرة للحياة، تحمل اثني عشر نوعاً من الثمار تمنحها كل شهر.. وكانت أوراق الشجرة مخصصة لعلاج جروح البلاد .. وفكر (مونتاج) قائلاً: نعم.. هذه هي القصة التي سأدخرها إلى الظهيرة.. الظهيرة حين نبلغ المدينة..

راي برادبوري

١٩٥٣

سيرة المترجم:

أحمد خالد توفيق فراج، مؤلف وروائي وطبيب، كاتب خيال علمي وقصص رعب.

نشر كثيراً من الترجمات المهمّة لروايات عالميّة، كما كتب عدداً من الكتب من روايات ومجموعات قصص وسلاسل في هذا الاتجاه.

ولد في حزيران ١٩٦٢ في مدينة طنطا من مصر.

رحل هذا المبدع الكبير في الثاني من نيسان ٢٠١٨ . يعد أول كاتب عربي في مجال أدب الرعب، والأشهر في مجال أدب الشباب والفانتازيا والخيال العلمي.

وقد وجدت من الواجب أن نقدّم بعضاً من ترجماته وقد أخذت منه إذناً بذلك قبل وفاته.

وقد رأى في سلسلة الخيال العلمي التي ننشرها إنجازاً في تعميم هذا النوع من الأدب بأسعار بسيطة لتصبح في متناول الذين يقرؤون من الشباب.

رئيس التحرير

المحتوى

المؤلف رود براد بري ٥

كان من الممتع أن تحرق.. ٩

الغربال والرمال ٦١

نيران الحرق اللامعـة ٧٥

سيرة المترجم ١٠١